

42
روايات عالمية للجيب
451
451
451
Looloo
www.dvd4arab.com
طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
451 فهرنهايت
قصة: راى برادبورى
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدِّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف



نترك الآن (فيرن) و(ويلز) اللذين استحقا عن جدارة أن يكونا رائدى أدب الخيال العلمى، وننتقل إلى أحد أساطين الخيال العلمى المعاصر، الذى صار اسمه رمزًا للجدية والجودة مثلما صار اسما (أزيموف) و(كلارك) وغيرهما..

الخيال العلمى - كما نعرف - هو ضرب من الأدب يحكى عن أحداث لم تحدث بعد ، تتناول علاقة العلم بحياة البشر . ويميل النقاد إلى توسيع مفهوم الخيال العلمى ليشمل ملاحم (جلجاميش) البابلية ومدينة (توماس مور) الفاضلة ، وكل عمل يتكلم عن حياة الإنسان فى عوالم أخرى، أو تطلّعه الذى لايرتوى إلى المعرفة . لكن الخيال العلمى ما كان ليصل

إلى صورته الحلية لو لم تولد الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر ، مع كل الخلخلة التى أحدثتها فى المفاهيم التقليدية ، وتطلع الإنسان الملهوف إلى حل كل أسرار الكون مرة واحدة ، وهكذا ولدت (فرانكنشتاين) التى كتبتها كاتبة رومانسية عادية هى (مارى شيللى) ، وسرعان ما انهمر سيل أعمال الخيال العلمى، لكن أبا هذا النوع من الأدب كان هو الفرنسى العظيم (جول فيرن).. وتلاه بنجاح ملحوظ البريطانى (هـ. ج. ويلز)..

فى العام 1921 أدخل الكاتب التشيكى (كاريل كابيك) لفظة (روبرت) إلى الأدب للمرة الأولى.. وهى أهم كلمة فى عالم الخيال العلمى طبعًا .

فى الخمسينات بدأ أدب الخيال العلمى الأمريكى يكتسب شعبية واضحة ، وقد امتزج امتزاجًا شديدًا بالمجلات المصورة، بحيث يصعب فصل نوعى الأدب . ومن أهم الأدباء الأمريكيين للنوع (روبرت هاينلاين) صاحب رواية (غرباء فى أرض غريبة ـ 1961) ، و(أزيموف) صاحب (كهوف الفولاذ ـ 1953) ... و(فرانك هربرت)

فى (يوميات الكشبان - 1965) و(لارى نيفن) .. وسرعان ما ظهرت اتجاهات جديدة مثل (الموجة الجديدة) و(السايبر بانك) ..

(راى برادبورى) كاتب أمريكى عظيم ولد عام 1920 ، اشتهر بمجموعاته القصصية (الرجل المرسوم - 1951) و(شىء شرير من هذا الطريق يأتى - 1962) و(451 فهرنهايت - 1953) . كان طفلاً واسع الخيال ، وقد اعتاد أن يكتب نحو أربع ساعات يوميًا منذ كان فى الحادية عشرة من عمره . باع أول رواية كتبها عام 1941 ، ليتفرغ بعدها للكتابة تمامًا . ركز فى كتاباته على الشر الكامن فى الإنسان وولعه باستغلال ما يعرفه من أجل السيطرة على الآخرين الذين يعرفون أقل . وهو فى ذلك متشائم ككل كتّاب الخيال العلمى ... العلم خطر داهم بالنسبة لإنسانية لم تنضج بعد .. ولقد كانت القنبلة الذرية هى أول استخدام للذرة قبل أن يفكر الإنسان فى أى استخدام سلمى لها ..

فاز بمجموعة غير عادية من الجوائز على كتاباته ، منها جوائز (نيبولا) و(بروميثيوس) و(برام ستوكر) و(كتاب الفضاء) و(الخيال العلمى) . كتب العديد من المسرحيات والسيناريوهات بالإضافة إلى برنامج تلفزيونى مهم هو (مسرح راى برادبورى) . وما زال هذا الكاتب المهم يعيش فى (كاليفورنيا) حتى اليوم مع أسرته .

قصة اليوم من القصص الشهيرة المهمة فى كتابات (برادبورى) ، وهى نموذج طيب لرؤيته المتشائمة لغد قاتم يجثم فيه حكم شمولى على أنفاس البشر . وقد قدمها المخرج الفرنسى (فرنسوا تريفو) عام 1969 فى فيلم شديد الأهمية والعمق ، قام ببطولته (أوسكار فيرنر) معَ (جولى كريستى) . ويقال إن النجم (ميل جيبسون) يستعد لتقديم نفس القصة فى صيغة جديدة .

أهم أعمال (برادبورى)

- شجرة الهالوين .
- الموت مهنة موحشة .
- مقبرة للمجانين .
- الحوت الأبيض .
- ظلال خضراء .
- الجراد الفضى .
- الكرنفال الأسود .
- تفاحات الشمس الذهبية .
- دواء للوحشة .
- يوم هطلت الأمطار للأبد .
- السفاح الصغير .
- أنا أغنى لكهرباء الجسد .
- الكمبيوتر المسكون .

كان من الممتع أن تحرق ..

كانت متعته الخاصة أن يرى الأشياء وقد التهمتها النار .. أن يراها وقد اسود لونها وتبدلت . بالفوهة النحاسية في قبضته ، والثعبان الهائل يبصق سمومه على العالم ، عندها كان الدم ينبض فى رأسه ، ويشعر كأنه مايسترو جبار يعزف كل سمفونيات الحريق والبريق جالبًا رماد التاريخ .

على رأسه الخوذة الرمزية التى تحمل رقم 451 وعيناه تلتهبان بفكرة ما هو آت .. كان يحرك قاذف اللهب ، وعندها كان البيت يحرق ظلمة الليل ذاتها ، فلا يبقى إلا اللون الأسود والأحمر والأصفر .

مضى وسط سرب من ذبابات النار ، وتمنى لو يشوى بعض (المارشميلو) على عصا فى الفرن ، بينما الكتب تحلق مشتعلة .. وتتطاير بعيدة مع ريح سودها الحريق .

وابتسم (مونتاج) فى توحش . كان يعرف أنه سيعود إلى مبنى المطافئ ، يتأمل نفسه فى المـرآة ، ثـم ينام وهو ما زال يشعر بالابتسامة المتوحشة على عضـلات وجهه فى الظلام . لم تفارقه قط تلك الابتسامة .. لـم تفارقه قط على قدر ما يتذكر .

نزع خونته السوداء وعلق سترته الواقية من النيران بعناية . أخذ دوشًا مريحًا ثم صعد ـ ويداه فى جيبه ـ وهو يصفر إلى الطابق العلوى من مبنـى المطـافئ . هنا كاد يسقط فى فتحة الأرضية ، لكنـه فـى اللحظـة الأخيرة أخرج يديه من جيبه وتشبث بالعمود الذهبـى ليخفف من سقطته . وتوقف بينما كعباه على ارتفـاع بوصة واحدة من الأرض الخرسانية . مشى متجهًا إلى القطار وهو ما زال يصفر .. ثم فجأة تصلب كأنما ريح غامضة جاءت من لا مكان ، أو كان شخصًا لا مرئـى ناداه باسمه . كان فى الليالى الماضية يشعر بشعور مريب كلما مر بهذا المنحنى من الطريق . كان يشعر بأن شخصًا ما قد كان هنا من لحظـة واحدة قبل

وصوله . ثمة هدوء معين فى الهواء كأنما كان شخص ما ينتظر هنا فى صمت ، فما إن رآه حتى استحال ظلاً وغاب فى الظلمة .. ربما استنشق أنفه عطرًا خافتًا ، وربما شعر الجلد على ظهر يديه بالحرارة التى تركها شخص كان يقف هنا ورفع حرارة الجو للحظات . لم يستطيع قط أن يفهم سر هذا الشعور ..

لكن فى هذه الليلة أبطأت خطواته حتى توقفت .. راح عقله الباطن يحاول أن ينظر إلى ما وراء المنحنى .. سمع صوت همس خافتًا . أتنفس هو ؟ أم الهواء ينضغط لأن شخصًا ما يقف هنالك فى صمت .. وينتظر ؟

دار حول المنحنى .. كانت أوراق الخريف تتطاير بكثافة بحيث بدا كأن الفتاة الواقفة هناك تنزلق ببطء على الرصيف ، وهى ترمق حذاءها الذى تتطاير حوله أوراق الشجر . كان وجهها رقيقًا بالغ الشحوب ، فيه فضول جائع لايكل . كانت نظرتها تعكس الدهشة .. عينان سوداوان تتركزان على العالم حتى إنهما لاتتحركان .. كاد يسمع صوت ثوبها .. بل إنه سمع الحركة البيضاء

لوجهها حين التفتت وأدركت أن هناك رجلاً يقف فى منتصف الرصيف أمامها .

لم تتحرك الفتاة ، إنما وقفت ترمق (مونتاج) بعينين سوداوين لامعتين مليئتين بالحياة ، حتى إنه شعر كأنما قال لها شيئًا رائعًا ، لكنه كان يعرف أن شفتيه فقط تحركتا لتقولا : « مرحبًا » ، حين تصلبت الفتاة إذ رأت جهاز الإشعال فى يده وشعار العنقاء على صدره .

قال لها : ـ « بالطبع أنت جارتنا الجديدة .. »

قالت له : ـ « ولابد أنك ... » ـ رفعت عينيها عن الرموز التى على ثيابه ـ « رجل الحريق .. »

ـ « كيف عرفت هذا ؟ »

ـ « كان بوسعى أن أعرفه مغمضة العينين »

ضحك وقال : ـ « من ماذا ؟ رائحة الكيروسين ؟ إن زوجتى تشكو دائمًا من هذا .. لايمكنك أبدًا إزالته بالغسيل » .

قالت فى رهبة : ـ « لا .. لا يمكنك .. »

ـ « الكيروسين ليس إلا عطرًا بالنسبة لى .. »

أدارت وجهها إلى الرصيف المتجه إلى بيتيهما وقالت :

ـ « أهو كذلك ؟ هل يضايقك أن أمشى معك ؟ أنا (كلاريس ماكليلان) »

ـ « وأنا (جاى مونتاج) » .. تعالى .. ماذا تفعلين فى الخارج فى هذه الساعة المتأخرة ؟ وكم عمرك ؟

مشيا على الإفريز .. كانت الفتاة تمشى جواره ، وذكرته رائحتها برائحة المشمش والشليك .. كان وجهها الأبيض يتألق فى ضوء القمر ، وأدرك أنها تفتش عن أفضل إجابات لأسئلته .

ـ « حسن .. أنا فى السابعة عشرة من عمرى ومجنونة .. عمى يقول إن الاثنين لايفترقان . أليس هذا وقتًا جميلاً للمشى ليلاً ؟ أحب أن أشم الأشياء وأرنو إليها .. أحيانًا أسهر طيلة الليل .. بالمناسبة أنا لست خائفة منك على الإطلاق » .

- « ولماذا يجب أن تخافى ؟ »

- « أنت تعرف .. أكثر الناس يخافون رجال الحريق(*) ».

رأى نفسه واضح التفاصيل فى عينيها ، معلقًا وسط سائل رائق أسود ، وكأن عينيها صمغ عنبر سحرى سقط هو فيه ، ليحفظ سليمًا .. وسألته (كلاريس) :

- « هل لى أن أسأل : منذ متى وأنت رجل حريق ؟ »

- « منذ كنت فى العشرين .. عشرة أعوام حتى الآن .. »

- « ألا تقرأ أبدًا من الكتب التى تحرقها ؟ »

ضحك وقال : - « هذا ضد القانون .. »

- « أصحيح أن رجال الإطفاء فى الماضى كانوا يطفئون النيران ولا يشعلونها كما يحدث اليوم؟ سمعت مرة أن المنازل كانت تحترق فى الماضى ، وكانوا يحتاجون إلى رجال الإطفاء لمنع النيران »

(*) (رجل الإطفاء) هى الترجمة الأكثر دقة لتعبير Fire man لكن مهمة رجل الإطفاء فى هذه الرواية هى حرق الكتب .. لهذا سندعوه (رجل الحريق) ..

- « كلا .. كانت المنازل دومًا ضد الحريق .. ثقى بكلمتى فى هذا الصدد .. »

- « ولماذا تضحك ؟ »

نظر لها بارتباك وتصلب ، فقالت له :

- « أنت تضحك بينما أنا لا أقول دعابات .. وتجيب بلا تفكير دون أن تتروى لتفهم كلماتى .. »

- « أنت إنسانة غريبة ولا تحترمين أحدًا .. ألا يعنى لك هذا شيئًا ؟ »

ودق على رقم 451 المثبت إلى كم سترته ..

- « بلى .. » - قالتها وأسرعت فى خطواتها - « هل رأيت السيارات النفاثة تتسابق على الطريق هنا من قبل ؟ »

- « أنت تغيرين الموضوع !! »

- « أحيانًا أحسب السائقين لايعرفون ما هو العشب ولا الزهور .. لأنهم لايرون هذه الأشياء ببطء ! لو رأى السائق ضببًا أخضر لعرف أن هذا عشب ، ولو رأى ضببًا

ورديًا لقال لك إن هذه زهور .. ولو رأى الضباب أبيض لقال لك إن هذه بيوت .. »

قال (مونتاج) فى توتر :

- « أنت تفكرين فى أمور أكثر من اللازم .. »

- « لا أهوى مشاهدة (جدارن التسلية) ولا (حدائق المتعة) .. لدى متسع من الوقت للأفكار المخبولة .. هل رأيت لوحات الإعلانات Billdoards العملاقة فى الريف ؟ هل تعرف أن لوحات الإعلانات كان طولها عشرين قدمًا فقط فى الماضى ؟ لكن السيارات كانت تمر بها بسرعة حتى إنهم اضطروا إلى إطالة الإعلانات إلى مائتى قدم ؟ »

ضحك (مونتاج) بحدة :

- « لم أعرف هذا .. »

- « لكنى أعرف شيئًا آخر لا تعرفه .. ثمة قطرات ندى على العشب فى الصباح .. »

لم يستطع تذكر إن كان يعرف هذا من قبل أم لا ، وجعله هذا أكثر توترًا . وأشارت الفتاة إلى السماء :

ـ « ولو أنك نظرت إلـى السماء .. لوجدت وجـه رجل على القمر .. »

واصلا السير فى صمت ، حتى وصلا إلى دارهـا .. كانت كل أضوائها تلتمع ..

ـ « ما الذى يحدث هنا ؟ »

لم يكن (مونتاج) قد رأى كل هذه الأضواء فى منزل من قبل ..

ـ « هؤلاء أبى وأمى وعمى يجلسون لتبادل الحديث .. لقد اعتقل عمى لأنه يمشى على قدميه .. ألم أخبرك بهذا ؟ أوه .. نحن من طراز مختلـف تمامًـا عـن الآخرين .. »

ـ « لكن عن أى شىء تتكلمون ؟ »

ضحكت لهذا السؤال وقالت : ـ « عمت مساءً »

وواصلت مشيها .. ثم بدا كأنما تذكرت شيئًا فعادت لتنظر له فى دهشة وفضول : ـ « هل أنت سعيد ؟ »

صاح :

ـ « أنا ماذا ؟ »

لكنها كانت قد تركته وراحت تركض فى ضوء القمر نحو بابها ، وأغلقته فى لطف ..

اتجه لباب بيته ووضع يده فى فتحة القفازات به ، كى يتعرف الباب لمسته .. وسرعان ما انفتح الباب الأمامى .. بالطبع أنا سعيد .. ماذا تعتقد ؟ ألست كذلك ؟ ووجه السؤال إلى الغرف الهادئة .. وقف عند حاجز التهوية فى الجدار . هنا تذكر فجأة أن شيئًا ما كان ينتظره خلف حاجز التهوية .. شيئًا لايريد أن يفكر فيه الآن .. وأبعد عينيه عنه ..

ياله من لقاء غريب فى ليلة غريبة . لايذكر أى شىء كهذا إلا منذ عام مضى حين قابل رجلاً عجوزًا فى الحديقة وتبادلا الكلام .

وهز (مونتاج) رأسه .. ونظر إلى الجدار الخالى .. كان وجه الفتاة هناك .. جميلاً بحق فى ذاكرته .. كان لها وجه نحيل كأنه عقرب ساعة ، تراه شاحبًا فى غرفة مظلمة ، حين تصحو لتعرف الوقت ..



لكنها كانت قد تركته وراحت تركض في ضوء القمر نحو بابها ،
وأغلقته في لطف ..

كم كان وجهها كالمرآة .. مستحيل .. كم من الناس عرفتهم يعكسون ضوءك الخاص إليك ؟ بحث عن تشبيه فلم يجد إلا ما يناسب عمله .. الناس كالمصابيح تتوهج ثم سرعان ما تنطفئ .. لا أحد منهم يتلقف روحك ويعكسها لك ثانية لتعرف نفسك أكثر ..

كم من الوقت مشيا معًا ؟ ثلاث دقائق ؟ خمسًا ؟ لكن كم بدا الوقت طويلاً .. يا للظل الذى رمته على الجدار بجسدها النحيل ! خيل إليه أنه لو شعر بحكة فى عينيه لرمشت الفتاة بعينيها هى ، ولو استرخت عضلات فكه لتثاءبت الفتاة قبل أن يتثاءب هو ..

لقد شعرت أن الفتاة كانت تنتظرنى فى الشارع هناك ..

* * *

فتح باب غرفة النوم .. كأنه يعود لغرفة رخامية باردة فى ضريح بعدما غاب القمر .. ظلام دامس ولا علامة واحدة على العالم الفضى بالخارج .. هذا عالم المقبرة حيث لا يمكن أن يصل صوت واحد من المدينة العظيمة .

أصاخ السمع .. كانت هناك همهمة البعوض الذى يرقص فى الهواء حوله .. شعر بابتسامة تنزلق .. تذوب .. تتكوم على نفسها .. كأنها شمعة اشتعلت طويلاً ثم تلاشت .. الظلام .. لم يكن سعيدًا .. لم يكن سعيدًا .. قال لنفسه هذا مرارًا .. لقد كان يرتدى السعادة كقناع ، وقد مرقت الفتاة عبر الزقاق حاملة القناع معها ، ولم يعد من المناسب أن يلحق بها ويستعيده ..

كانت زوجته راقدة فى الفراش كأنها جسد مسجى فى قبر .. عيناها مثبتتان على السقف كأنما ربطت إليه بحبال من فولاذ لايمكن رؤيتها .. ومن أذنيها كانت السماعتان تسكبان بحرًا لا آخر له من الموسيقا والأصوات . فى كل ليلة تحملها هذه الموجات فوقها - بعينين مفتوحتين - طيلة الليل حتى الصباح ..

كانت الغرفة باردة ، وشعر بأنه عاجز عن التنفس .. لكنه لم يرغب فى فتح الستائر ليدخل الهواء النقى ، لأنه لم يرغب فى أن يدخل ضوء القمر . شق طريقه إلى فراشه المنفصل البارد وهو يوشك على الاختناق ..

قبل أن يصدم الجسم على الأرضية بثانية واحدة.
أحس به .. كأن قدمه أرسلت ذبذبات خفية وارتدت لها أصداء الحاجز الصغير فى طريقها . أصدر الجسم صوتًا مكتومًا وتدحرج فى الظلام تحت الفراش ..

وقف وراح يصغى للشخص الراقد فى الفراش فى الظلام .. لم يكن راغبًا فى إضاءة النور ، لذا أضاء مشعله ..

كانت هناك جوهرتان تنظران له فى ضوء الكشاف .. جوهرتان تسبحان فى نهر من المياه الصافية ..

ـ « (مليدريد) !! »

كان وجهها كجزيرة يغمرها الجليد قد يهطل فوقها المطر لكنها لا تشعر بالمطر .. قد تمر فوقها السحب بظلال متحركة لكنها لا ترى ظلالاً .. لاشىء إلا عينيها الزجاجيتين وأنفاسًا خافتة تخرج وتدخل من فرجتى أنفها .. وهى لا تعبأ إن كانت تلكم الأنفاس تخرج أم تدخل .. تدخل أم تخرج .. الآن يرى الشىء الذى صدمه بقدمه وجعله يتدحرج تحت الفراش .. كان الشىء زجاجة صغيرة

من الدواء المنوم ، كانت فى وقت مبكر من هذا اليوم مليئة بثلاثين كبسولة ، والآن هى على الأرض خالية منزوعة الغطاء ..

إذ وقف هناك دوى صوت صارخ فى الفضاء فوق البيت .. صوت تمزيق عال كأن يدين عملاقتين مزقتا عشرة آلاف ميل من القماش الأسود .. وشعر (مونتاج) بأنه يتمزق بينما القاذفات النفاثة تحلق وتحلق وتحلق .. واحدة منها .. واحدة .. اثنتان .. ست منها .. تسع منها .. واحدة .. وأخرى وأخرى وأخرى .. كلها تقوم بالصراخ بدلاً منه ..

واهتز البيت بالصراخ .. وشعر بيده تثب إلى الهاتف ..

تحركت شفتاه أخيرًا وهو يهمس بصوت مريع :

ـ « مستشفى الطوارئ .. »

* * *

كان لديهم جهازان .. أحدهما منظار ينزلق إلى أحشائك مثل الكوبرا إذ تنزلق إلى بئر ، لتشرب كل الماء العتيق

والماضى المنسى هناك .. جهاز يشرب الماء الأخضر هناك ، فهل يشرب من الظلام ؟ هل امتص السموم المتراكمة عبر السنين ؟ كانت له عين .. يستطيع مشغل الجهاز أن يرتدى خوذة بصرية خاصة ينظر بها إلى روح الشخص الذى يفحصه .. فماذا رأت العين ؟

وكانت الآلة الأخرى تعمل بدورها .. كانت تشفط كل الدماء من الجسد وتبدل بها دماء نقية طازجة ..

قال مشغل الآلة :

ـ « لابد من أن تنظفه بالطريقتين معًا .. لاجدوى من تنظيف المعدة مالم تنظف الدم أيضًا .. اترك هذه المادة فى الدم ولسوف تضرب المخ كمطرقة .. بانج .. بانج .. وسرعان ما ينهار المخ تمامًا .. »

سأله (مونتاج) فى فتور :

ـ « هل انتهيت من عملك ؟ »

أغلقا الآلتين وقالا : ـ « انتهينا »

ووقفا بينما يلتف دخان التبغ حول أنفيهما وعيونهما ، لكنهما لم يرمشا وقال أحدهما :

ـ « التكلفة خمسون دولارًا .. »

ـ « أولاً لماذا لاتقولان لى إن كانت ستكون بخير ؟»

ـ « بالطبع ستكون على ما يرام .. قد ظفرنا بالمادة اللعينة كلها هنا فى حقيبتنا .. وكما قلت لك .. أنت تمتص ما هو قديم وتضع ما هو جديد ، وسرعان ما تكون على ما يرام .. »

ـ « كلاكما لم يحصل على الدكتوراه .. فلماذا لم يرسلوا لى أحد حاملى الدكتوراه من الطوارىء ؟ »

تحركت لفافة تبغ مشغل الجهاز بين شفتيه :

ـ « يا للجحيم ! نحن نرى تسع أو عشر حالات كهذه كل ليلة .. إنها كثيرة جدًا .. حالة كهذه لاتحتاج إلى دكتوراه .. فقط تحتاج إلى رجلين حرفيين بارعين يزيلان المشكلة فى نصف ساعة .. والآن نحن

متعجلان .. هنـاك مكالمـة لنـا من بيت يبعد عشرة مربعات سكنية عن هنا .. حاول أن تبقيها هادئـة .. ستصحو من نومها جائعة .. والآن وداعًا .. »

وحمل الرجلان جهازيهما وغادرا المكان .. غاص (مونتـاج) فـى مقعد وراح يتـأمل المـرأة .. كـانت عيناها مغمضتين الآن ، وقرب كفه ليتأكد من تنفسـها .. فى النهاية قال : ـ « (مليدريد) .. »

فكر : هناك الكثيرون منا ينتحرون .. هنـاك البلايين منا وهذا رقم كبير بحق .. لا أحد يعرف أحدًا .. فقط الغرباء يأتون ويحطمون خصوصيتك .. الغرباء يأتون ويمزقون قلبك .. الغرباء يأتون ويمتصون دمك ..

ومر نصف ساعة .. كانت دماء المرأة جديدة الآن وقد بدا أنها أكسبتها شيئًا جديدًا .. احمر خداها وبدا كأن شفتيها طازجتان مليئتان باللون .. إن دم إنسان آخر فى عروقها حاليًا .. فلو أنهم أخذوا عقلها إلى المغسلة كذلك .. لينظفوه ويغسلوه ويجففوه ويعيدوه فى الصباح .. لو أمكنهم هذا !

نهض وفتح الستائر .. كانت الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل .. أحقًا قد مضت ساعة فقط منذ قابل (كلاريس) فى الشارع وعاد للبيت المظلم ، ليجد زوجته فى هذا الحال ؟

وانتقل خياله إلى البيت عبر الشارع .. البيت الدافئ المضيء حيث تجلس (كلاريس) مع أسرتها .. البيت ذو الأنوار المضاءة .. إنهم يجلسون هناك ويتكلمون .. يتكلمون طيلة الليل .. ماذا يقولون ؟

ودون تفكير عبر الزقاق .. ووقف هناك فى البرد ، وقد صار وجهه قناعًا من الثلج ، يصغى لصوت رجل (هل العم ؟) :

ـ « حسن .. هذا زمن المناديل الورقية .. تمخط على شخص ما .. كوم المنديل .. تخلص منه .. ابحث عن آخر .. تمخط .. كوم .. ابحث .. كل إنسان يستغل الآخرين .. »

عاد (مونتاج) إلى البيت .. أغلق النافذة .. أحكم الأغطية حول (مليدريد) ، ثم رقد وضوء القمر على

وجنتيه وعلى حاجبيه ، وقد انصب ضوء القمر فى كل عين صانعًا سدًا من الفضة ..

قطرة مطر .. (كلاريس) .. قطرة أخرى (مليدريد) .. ثالثة .. العم .. رابعة .. النار .. حبوب منومة .. مناديل ورقية .. تمخط .. تخلص .. ابحث .. واحد اثنان ثلاثة .. واحد اثنان ثلاثة .. (كلاريس) .. (مليدريد) .. العم .. النار .. المطر ! العاصفة .. العم يضحك .. العاصفة والنار فى البركان ..

قال :

- « لا أعرف أى شىء أكثر من هذا .. »

وترك قرصًا منومًا يذوب تحت لسانه ..

* * *

فى التاسعة صباحًا كان فراش (مليدريد) خاليًا .. جرى (مونتاج) عبر الردهة وتصلب امام باب المطبخ .. كانت شرائح الخبز المحمص تثب من (التوستر) لتتلقفها يد معدنية تدهنها بالزبد .. كانت (ميلدريد) جالسة

تنتظر إفطارها ، وفى أذنيها السماعتان اللتان تسليانها طيلة الوقت .. نظرت فجأة فرأته وهزت رأسها . سألها :

ـ « أنت على ما يرام ؟ »

كانت خبيرة فى قراءة حركات الشفاه بعد عشرة أعوام من استعمال السماعات القوقعية على الأذنين ، لذا هزت رأسها ، وجلس (مونتاج)..

قالت :

ـ « لا أعرف سبب كونى جائعة لهذا الحد .. »

ـ « أمس أنت ... »

ـ « لم أنم جيدًا .. وأشعر بإرهاق شديد .. رباه ! أنا جوعى تمامًا .. لا أستطيع تصور هذا .. ولكن ماذا عن أمس ؟ »

ـ « ألا تذكرين ؟ »

ـ « ماذا ؟ هل كان لدينا حفل صاخب أو شىء من هذا القبيل ؟ من كان هنا ؟ »

ـ « أناس قليلون .. »

مضغت شريحتها من الخبز المحمص وقالت :

ـ « آمل أننى لم أرتكب حماقات .. »

قال فى هدوء :

ـ « لا .. »

عند العصر أمطرت السماء وصار الكون كله رماديًا .. وقف فى الصالة يثبت الشارة على صدره . وتوقف عند فتحة جهاز التهوية لفترة ما .. كانت زوجته فى غرفة التلفزيون وقد كفت للحظة عن قراءة النص وصاحت :

ـ « هيه ! الرجل يفكر ! »

قال لها : ـ « أريد أن أتكلم معك .. لقد أخذت كل الحبوب من زجاجتك ليلة أمس .. »

قالت فى دهشة :

ـ « أوه .. لا .. ما كنت لأفعل هذا .. »

ـ « الزجاجة كانت فارغة .. »

ـ « ما كنت لأفعل شيئًا كهذا .. لماذا أفعله ؟ »

ـ « لا أدرى .. »

كان من الواضح أنها ترغب فى أن يرحل لتواصل البرنامج .. وقالت له :

ـ « لم أفعل هذا .. ولو بعد مليون سنة .. »

ـ « حسن .. ما دمت تقولين هذا.. » ـ وسألها بتعب ـ « ماذا فى التلفزيون هذا العصر ؟ »

لم ترفع عينيها عن النص بين يديها وقالت :

ـ « حسن .. هناك تمثيلية ستذاع عبر دائرة (من الجدار للجدار) خلال عشر دقائق .. لقد أرسلوا لى نص التمثيلية هذا الصباح .. هناك سطور ناقصة وعلى أن أكملها أنا .. إنها فكرة جيدة .. السطور الخاصة بربة المنزل ناقصة وسألعبها أنا على الهواء .. سيراقبوننى جميعًا عبر الجدران الثلاثة .. مثلاً سيقول

الرجل فى التمثيلية : ما رأيك فى هذا يا (هيلين) ؟ عندئذ أتكلم أنا .. أقول : هذا يبدو جيدًا .. ثم تستمر أحداث التمثيلية إلى أن يقول لى الرجل :

هل تعتقدين هذا يا (هيلين) ؟ فـأقول : نعم .. أليس هذا ممتعًا ؟ »

نظر لها ثم قال :

ـ « هذه متعة أكيدة .. »

ـ « بالطبع متعة .. خاصة لو أنك قمت بتركيب جدار التلفزيون الرابع .. لا أدرى متى يمكنك شراء واحد ؟ إن ثمنه لايتجاوز ألفى دولار .. »

ـ « هذا ثلث دخلى السنوى . »

ـ « ألا تفكر فىّ أحيانًا ؟ يمكننا الاستغناء عن أشياء صغيرة كثيرة من أجل هذا الحلم .. »

ـ « نحن بالفعل نستغنى عن أشياء كثيرة من أجل دفع ثمن الجدار الثالث .. لقد اشتريناه منذ شهرين لا أكثر .. فهل تذكرين هذا ؟ »

نظرت له فى دهشة :

ـ « هل من هذا الوقت فقط ؟ حسن .. إلى اللقاء يا عزيزى .. »

تركها وخرج من المنزل إلى حيث الأمطار ..

* * *

كان المطر بدأ يقل حين رأى الفتاة تمشى على الإفريز ووجهها للسماء ، وابتسمت حين رأت (مونتاج) ..

ـ « مرحبًا .. »

رحب بها وقال :

ـ « ماذا تعملين الآن ؟ »

ـ « أنا ما زلت مجنونة .. إن المطر جميل وأنا أحب السير فيه .. » ـ ولعقت شفتيها ـ « بل إن مذاقه نفسه طيب .. ألا ترى هذا ؟ »

ـ « هل كل ما تفعلين هو أن تجولى وتجربى كل شىء مرة واحدة ؟ »

- « أحيانًا مرتين .. »

ونظرت لشىء فى يدها فسألها :

- « ماذا هنالك ؟ »

- « زهور النرجس .. يقال إنك لو فركتها تحت ذقنك ، ومسحتها فلم يزل أثرها ، كان معنى هذا أنك واقع فى الحب مع شخص ما ! »

ثم ابتسمت وقالت :

- « كنت ذاهبة إلى الطبيب النفسى .. هم يرغموننى على ذلك .. ما زال الرجل يجاهد فى كشف أغوار نفسى ، ويقول إننى كالبصلة .. ما زال يقشر طبقة تلو طبقة من أسرارى .. »

- « أنا متأكد من أنك بحاجة إلى الطب النفسى .. »

- « هل تعنىْ هذا ؟ »

أخذ نفسًا عميقًا وقال :

- « لا أعنيه .. »

ـ « يريد الطبيب النفسى معرفة سبب تجوالى فى الغابات .. وسبب مراقبتى للطيور وجمعى الفراشات .. أحب أن أرجع رأسى للوراء هكذا وأترك المطر يسقط داخل فمى .. إنه رائع المذاق بهذه الطريقة .. هل جربته ؟ »

ـ « أنت غريبة الأطوار .. هل قلت إن عمرك سبعة عشر عامًا ؟ هذا غريب .. إن زوجتى فى الثلاثين لكنك أحيانًا تعطين الانطباع بأنك أكبر منها .. »

ـ « هل لى أن أثير غيظك ثانية يامستر (مونتاج) ؟ »

ـ « تفضلى .. »

ـ « كيف بدأ الأمر بالنسبة لك ؟ كيف صرت رجل إطفاء ؟ كيف فكرت فى الوظيفة التى تمارسها ؟ أنت لست كالآخرين فقد قابلت بعضهم .. حينما أتكلم أراك تنظر لى .. حين أتكلم عن القمر أراك تنظر للقمر .. الآخرون لايفعلون هذا .. كانوا سيرحلون تاركين إياى أتكلم .. لا أحد لديه وقت يكفى للآخرين .. »

شعر بجسده ينقسم إلى نقيضين يحاولان التهام بعضهما : الطيب والشرير .. الحار والبارد .. الصلب واللين .. وقال لها :

- « ربما كان من الأفضل أن تلحقى بموعدك .. »

ووقف وحده طويلاً بعد رحيلها .. ثم إنه نظر لأعلى إلى المطر وفتح فمه ..

* * *

راح (مونتاج) يتأمل فى إعجاب كلب الصيد الآلى الذى زود به مركز الإطفاء .. كان يشبه نحلة عجيبة ثمانية الأرجل ، قادمة من حقول تزخر بعسل مسموم شأنه .. والآن عادت من هناك مغطاة بالكوابيس كى تغفو قليلاً ..

فى الليالى المملة - أى فى كل ليلة - كان الرجال يتسلون بجعل الكلب الآلى يصطاد بعض الحيوانات الحية : الفئران وأحياناً الدجاج وأحياناً القطط التى يجب إغراقها على كل حال .. كانوا يطلقون سراح هذه الحيوانات

فى مبنى الإطفاء ، ويتراهنون على أيها سيظفر به الكلب الآلى أولاً .. بعد ثوان سرعان ما يسقط الفأر أو القط أو الدجاجة فى المخالب الحديدية للكلب ، وتخرج إبرة طولها أربعة بوصات من فم الكلب لتحقن جرعة عالية من البروكايين .. وسرعان ما تلقى الفريسة فى المحرقة ..

لم يكن (مونتاج) يشارك فى هذه المباريات ، فقد مر عامان منذ كان يراهن مع المراهنين ، ويخسر راتب أسبوع كامل ، ويواجه سحنة (مليدريد) الغاضبة المجنونة .. لكنه اعتاد على أن يجلس ويصغى إلى صوت الضحك من أسفل .. صوت أقدام الفئران ، وصراخها الشبيه بصراخ الكمان ..

فجأة لمست يده أنف الكلب ..

نهض الكلب فى مأواه ونظر له بعينين من النيون الأخضر الوهاج ، وأطلق المزيد من الزئير .. نوعًا غريبًا من الضوضاء الكهربية والطحن واحتكاك المعادن .. تواثب قلب (مونتاج) وهتف :



نهض الكلب فى مأواه ونظر له بعينين من النون الأخضر الوهاج ، وأطلق المزيد من الزئير ..

- « لا .. لا يا بنى .. »

ورأى الإبرة الفضية تتحرك فى الهواء .. تتلوى .. منذرة بالحقن .. وتعالى زئير الوحش ..

تمسك (مونتاج) بالعمود النحاسى الذى ينقلهم من طابق إلى طابق ، وبسرعة ارتفع به العمود إلى السقف بعيدًا عن الوحش الآلى الغاضب ..

كان يرتجف ، ووجهه أبيض مخضر من الفزع .. ونظر لأسفل فوجد أن الوحش عاد لمأواه ، وقد هدأت أضواؤه ، وانثنت أرجله الثمانية من تحته ..

نظر (مونتاج) وراءه ليجد أربعة رجال يلعبون الورق فى ركن المكان ، وينظرون له دون أن يقول أحدهم شيئًا .. فقط تكلم الرجل الذى يلبس قبعة الكابتن ويضع رمز العنقاء عليها ، وقد استبد به الفضول :

- « (مونتاج) ؟ »

- « إنه لا يحبنى .. »

ـ « من ؟ الكلب الإلكترونى ؟ هلم .. تعقل .. إنه لايحب ولايكره .. إنه (يعمل) فقط .. إن له مسارًا نحدده له وهو يتبعه فقط .. ليس إلا سلوكًا وبطاريات ودوائر »

ـ « الكلب يعتمد على ذاكرة برمجناها له .. إنه يعرف الأحماض الأمينية ونسب الكبريت لكل الموجودين هنا من قبل .. لكنه اهتاج حين دنوت منه .. غضب لكنه لم يهاجم ، وكأن هناك من أعطاه ما يكفى كى يكون ضدى .. »

هتف الكابتن :

ـ « هلم يا (مونتاج) لاتكن سخيفًا .. من يصنع عملاً كهذا ؟ ليس لك أعداء هنا يا بنى .. اطلب من الفنيين أن يفحصوا الكلب »

ـ « ليست هذه أول مرة يهددنى فيها .. لقد فعلها مرتين الشهر الماضى .. لا أريد أن أكون الضحية التالية »

ووقف (مونتاج) صامتًا فنظر له الكابتن نظرة متسائلة .. فقال هذا :

ـ « أحيانًا أتساءل عما يفكر فيه هذا الكلب طيلة الليل وحده .. سيكون من المؤسف ألا يحوى عقله إلا الصيد والقنص والدماء .. »

ـ « الكلب الآلى لايفكر .. إنه قطعة من الفن الرفيع .. بندقية تحدد هدفها وتصوب عليه ، وتصيبه فى كل مرة واثقة من التسديد المحكم .. ترى هل يضايقك ضميرك لسبب ما ؟ »

* * *

يوم يومان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة أيام .. كان يخرج من الدار ليرى (كلاريس) فى كل مرة ، وفى كل مرة كانت تصنع شيئًا جديدًا : تجمع الزهور .. تحمل كيسًا من الكستناء .. تشم الأشجار .. وفى كل مرة كانت تمشى معه حول ركن الشارع .. وقد قال لها فى مرة :

ـ « لماذا أشعر كلما رأيتك بأننى أعرفك من زمن ؟ »

ـ « لأننى أميل إليك ، ولأننى لا أريد منك منفعة .. هل تأملت اللافتات الإعلانية العملاقة كما قلت لك ؟ »

نظر لها فى دهشة ولم يتمالك إلا أن يضحك فى ارتباك .. وسألها :

ـ « لماذا لست فى المدرسة ؟ أراك كل يوم تجولين ولاتفعلين شيئًا .. »

ـ « لم يفتقدونى هنالك .. يقولون إننى غير اجتماعية وهذا يدهشنى .. أنا اجتماعية جدًا لكن المشكلة هنا ما تعنيه لفظة (اجتماعى) .. (اجتماعى) بالنسبة لى معناه الكلام عن أشياء كهذه .. » ـ وداعبت الكستناء التى جمعتها من الشجرة ـ « لكننى لا أجد شيئًا اجتماعيًا فى أن تجلس الناس معًا ولا تسمح لهم بالكلام .. الجلوس ساعة أمام التلفزيون .. اللعب ساعة .. الرسم ساعة .. بينما لا أحد يوجه أسئلة .. أنت فقط تتلقى الإجابات الجاهزة .. ثم ينتهى اليوم وأنت

منهمك فلا تجد مكانا إلا السرير أو تذهب إلى إحدى حدائق التسلية ، حيث تستمتع بتهشيم النوافذ فى (قسم التحطيم) أو تهشم بعض السيارات فى (قسم تهشيم السيارات) .. نعم .. ليس لى أصدقاء لكننى لا أجد من يستحق مصادقته .. »

ـ « تبدين لى عجوزًا .. »

ـ « أحيانًا أنا عتيقة .. الصبية فى عمرى يتسلون بقتل بعضهم البعض .. لقد أطلقت الشرطة الرصاص على ستة من زملائى العام الماضى فقط .. ومات عشرة فى حوادث سيارات ، لكن البوليس لايعبأ بهم ماداموا يملكون تأمينا .. طالما أنت مؤمن عليك بعشرة آلاف دولار فالكل راض سعيد .. جدى يتحدث عن زمن كان الصبية فيه لايقتلون بعضهم البعض وكانوا يشعرون بالمسئولية .. لقد مشيت فى كل مكان من البلدة ، وهبطت فى محطات المترو .. هل تعرف ما لاحظته ؟ الناس لايتكلمون عن أى شىء .. فى المعارض لاترى إلا الفن التجريدى .. جدى يتكلم عن زمن كانت فيه الصور فى المعارض تحكى عن أشياء أو تظهر أناسًا .. »

* * *

يوم يومان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة أيام .. فى مبنى الإطفاء ..

اليوم الثالث :

- « (مونتاج) .. للمرة الثانية تدخل من الباب الخلفى .. هل ما زال الكلب يضايقك ؟ »

اليوم الرابع :

- « (مونتاج) .. سمعنا خبرًا غريبًا هذا اليوم .. رجل إطفاء فى (سياتل) برمج الكلب الإلكترونى عمدًا كى يهاجمه هو .. أى نوع من الانتحار هذا ؟ »

خمسة ستة سبعة أيام .. وقد رحلت (كلاريس) .. لايفهم السبب لكنه لم يعد يراها على الإطلاق .. الشارع خال .. الأشجار خالية .. الإفريز خال .. بحث عنها فى كل مكان .. حسب أنه لو مشى فى نفس المسارات فسوف يجدها، لكن لا أثر لها .. وأغمض عينيه فى مبنى الإطفاء يصغى للساعة الناطقة ، وصوت لعب الأوراق من رفاقه .. الساعة الباردة فى اليوم البارد من العالم الأكثر بردًا .. ومن المذياع جاء صوت المذيع :

ـ « قد تعلن الحرب فى أية لحظة .. إن هذا البلد يقف متأهبًا للدفاع عن نفسه .. »

وهنا ارتجف مبنى الإطفاء إذ حلق سرب من المقاتلات فى سماء الصباح المكفهرة ..

ونظر (مونتاج) من حوله .. كان الكابتن (بيتى) يرمقه فى اهتمام وفضول كأنما هو تمثال فى متحف .. فى أية لحظة سينهض .. يمشى نحوه .. يلمسه ويعرف عقدة الذنب التى تثقل ضميره ..

ونظر (مونتاج) إلى زملائه .. أتراه رأى فى حياته رجل إطفاء لا يملك شعرًا أسود وحاجبين سوداوين .. وبشرة لوحتها الشمس ، وذقنًا حلقت بعناية لكنها مازالت تعكس لونًا أزرق معدنيًا ؟ كل هؤلاء الرجال انعكاسات فى المرآة له هو نفسه .. هل يختارون رجال الإطفاء لمظهرهم فقط ؟ لرائحة الشياط المتصاعدة منهم ؟

ـ « ماذا عن المكتبة التى تولينا أمرها فى الأسبوع الماضى ؟ ماذا حدث لصاحبها ؟ »

ـ « أخذوه وهو يصرخ إلى المصحة العقلية .. »

ـ « لكنه لم يكن مجنونًا .. »

رتّب الكابتن أوراقه وقال :

ـ « كل رجل مجنون لو حسب أنه يستطيع خداع الحكومة وخداعنا .. »

ـ « هل كان الأمر دائمًا كهذا ؟ أعنى الحريق والكتب ؟ أعنى (كان ياما كان ..) »

نظر له الكابتن فى دهشة وقال :

ـ « (كان ياما كان ..) ؟ ما معنى هذا ؟ »

صمت (مونتاج) ولم يتكلم .. كانت هذه العبارة هى السطر الأول من إحدى قصص الأطفال التى وجدها فى مكتبة أحرقها الأسبوع الماضى ..

كان الرجال يراجعون كتاب التعليمات الخاصة بالحرق ، وكانت تقول :

القاعدة :

1 ـ استجب للإنذار بسرعة .

2 ـ أشعل النار بسرعة .

3 ـ أحرق كل شيء .

4 ـ عد سريعًا لمبنى الإطفاء .

5 ـ ابق مستعدًا للإنذارات التالية .

ودوى جرس الإنذار .

دق الجرس فى السقف مائتى مرة .. فجأة خلت أربعة مقاعد .. وسرعان ما اختفى الرجال ..

ـ « (مونتاج) ! لقد نسيت خوذتك ! »

فاستردها من على الجدار خلفه .. وجرى ليهبط على العمود النحاسى ، وراحت ريح الليل تعول مع سرينة العربة المتجهة لهدفها . كان بيتًا من ثلاثة طوابق فى الجزء القديم من البلدة .. وكان عمره قرنًا لكنه ككل البيوت الأخرى قد تم طلاؤه بمادة

واقية من النار ، وبدا كأنما تلك الطبقة هى الشىء الوحيد الذى يبقى المنزل ملتصقًا بالسماء ..

وتوقف المحرك .. ووثب (بيتى) و(ستونمان) و(بلاك) إلى الإفريز وقد بدوا أكثر بدانة فى ستراتهم الواقية من النيران .. هشموا الباب الأمامى ، وقبضوا على امرأة عجوز برغم أنها لم تكن تجرى .. لم تكن تحاول أى فرار ..

كانت تقف ، وتطوح ذراعيها من جانب لآخر .. لسانها يحاول أن يتحرك فى فيها ، وعيناها تحاولان تذكر شىء ما .. فى النهاية تمكنت من الكلام :

- « كن رجلاً ياسيد (ريدلى) .. هذه الليلة بقدرة الله سنشعل شمعة فى إنجلترا ، أومن أنها لن تنطفئ أبدًا .. »

صاح (بيتى) :

- « كفى عن هذا .. أين هى ؟ »

وصفعها على وجهها وكرر السؤال ، فتصلبت عيناها عليه :

ـ « أنت تعرف أين هى وإلا ما كنت جئت هنا .. »

تأمل الرجل البطاقة التى فى يده ، والتى تحمل نص البلاغ الأصلى الذى جاءهم بالهاتف ، وقد كتب عليها : « لدى أسباب للشك فى القبو .. »

ـ « هلموا يا رجال نظفر بها .. »

سرعان ما صاروا فى ظلمة دامسة .. يفتحون أبوابًا غير موصدة .. وفجأة هوى شلال من الكتب فوق (مونتاج) .. يا للأسى ! سرعان ما تزول النشوة قبل أن تبدأ .. دائمًا ما يأتى رجال الشرطة ويقيدون الضحية ويكممون فمها بالشريط اللاصق ، قبل أن تصل أنت لتجد منزلاً فارغًا .. أنت لم تؤذ أحدًا من قبل .. أنت تؤذى الأشياء فقط ! ولأن الأشياء لايمكن إيذاؤها لأنها لا تصرخ ولاتولول ، فلم يحدث ما ينغص ضميرك من قبل ..

إن عملك هو التنظيف فقط .. تعيد كل شىء لحاله .. من معه الكيروسين .. من معه عود ثقاب ؟

لكن هذه المرأة وقعت فى الشرك ، وقد وجد الرجال أنفسهم يحدثون أكبر قدر من الصخب والضحك كى يغطوا صمتها المليء بالاتهام لهم ..

وشعر (مونتاج) بالضيق .. ليتها ليست هنا تشهد ما يفعلون ..

طارت الكتب فوق كتفى (مونتاج) كأنما هى حمامات بيض .. ترفرف أجنحتها .. هوى كتاب على يده وانفتحت صفحة منه .. ووسط العجلة وجد وقتًا كافيًا كى يقرأ سطرًا واحدًا ظل يتوهج فى ذهنه كأنما حفر هناك : «أخلد الزمن للنوم فى شمس العصر ..» رمى الكتاب على الأرض وسرعان ما هوى كتاب آخر بين يديه ..

الرجال يرمون له بأكوام من المجلات التى يغطيها الغبار .. فتحلق كأنها طيور ذبيحة .. والمرأة تقف هناك تراقب ما يجرى ..

ولم يفعل (مونتاج) شيئًا .. يداه تصرفتا بإرادتهما الحرة .. أمسك بالكتاب وبسرعة طوحه تحت إبطه

المبتل بالعرق داخل سترته ، ورسم على وجهه أمارات البراءة كأنه حاو بارع .. انظروا هنا !! هذا رجل برىء !!

ـ « (مونتاج) ! »

فوثب فى مكانه ..

ـ « لا تقف هنالك يا أحمق ! »

كانت أكداس الكتب الآن كأنها كومة أسماك تركت لتجفف .. والرجال يتعثرون ويسقطون من فوقها .. أين الكيروسين ؟ وأغرقوا الكتب بالسائل من الحاويات التى تحمل رقم 451 على ظهورهم .. ثم إنهم ركضوا إلى أسفل وسط أبخرة الكيروسين ..

كانت المرأة الآن راكعة وسط الكتب تتحسس جلودها وأغلفتها المصنوعة من الورق المقوى ، وترمى (مونتاج) بنظرة اتهام .. وقال لها (بيتى) :

ـ « أنت تعرفين القانون يا امرأة .. ما الرابط بين هذه الكتب وبعضها ؟ لقد قضيت أعوامًا من عمرك



كانت المرأة الآن راكعة وسط الكتب تتحسس جلودها وأغلفتها المصنوعة من الورق المقوى .

فى برج (بابل) هذا .. بينما القوم الذين فى هذه الكتب لم يعيشوا قط .. هلمى ! »

هزت المرأة رأسها نفيًا ، فعاد يقول لها :

ـ « لسوف يتبخر البيت كله .. »

وبدأ الرجال يغادرون البيت ، فصاح بهم (مونتاج) :

ـ « ما هذا ؟ هل تتركونها هنا ؟ لماذا لا نرغمها على الخروج ؟ »

قال (بيتى) بلا اكتراث :

ـ « كل هؤلاء المخابيل يفضلون الموت مع كتبهم .. هذا النمط من السلوك معتاد .. »

توسل لها (مونتاج) :

ـ « لسوف تأتين معى .. »

ـ « لا .. شكرًا على كل حال .. »

ثم أخرجت شيئًا من يدها .. كانت علبة ثقاب عادية جدًا ..

رأى الرجال ما أخرجته فركضوا يتدافعون فرارًا من البيت .. وتراجع الكابتن (بيتى) ببطء وبظهره إلى الباب محتفظًا بكبريائه .. وفكر (مونتاج) : رباه ! دائمًا ما تأتى الإنذارات ليلاً لا نهارًا .. ترى ما السبب ؟ هل لأن النار تكون أجمل فى الليل ؟

مدت المرأة يدها وحكت عود الثقاب ، وفى اللحظة التالية توهج اللهب وسرعان ما انتقلت النار إلى أبخرة الكيروسين من حولها .. وشعر (مونتاج) بأن الكتاب يخفق كالقلب جوار صدره ..

جرى إلى الباب بينما الكيروسين الملتهب يتلوى كأنه مسار بزاقة شريرة ..

ولم يتبادل الرجال حديثًا فى أثناء العودة إلى مبنى الإطفاء .. لم ينظر أحدهم للآخر ..

بعد فترة قالَ (مونتاج) :

- « السيد (ريدلى) .. »

- « ماذا ؟ »

ـ « قالت : السيد (ريدلى) .. حين دخلنا من بابها .. ثم قالت : كن رجلاً .. ثم قالت .. قالت ... »

ـ « .. هذه الليلة بقدرة اللّه سنشعل شمعةً فى إنجلترا ، أومن أنها لن تنطفئ أبدًا .. »

نظر له (مونتاج) فى دهشة وكذا فعل (بلاك) ، فقال (بيتى) :

ـ « هذه الكلمات قالها رجل يدعى (لاتيمر) لرجل يدعى (نيكولاس ريدلى) بينما هما يحرقان حيين بتهمة الهرطقة فى (أوكسفورد) ، فى 16 أكتوبر عام 1555 .. تبًا ! خذ الحذر يا (ستون) .. لقد كدت تدهم عابر السبيل هذا »

* * *

راح ينظر لزوجته .. وتذكر كيف وقف الرجلان ينظفان أحشاءها من المنوم .. كم مرة فعلتها وتصحو ناسية تمامًا أنها فعلتها .. وفى كل مرة لاينام هو ويمضى الليل ساهرًا .. كان يشعر فى كل مرة أنها لو ماتت

فلن يبكى .. لأن موتها سيكون كحادث فى الشـارع .. موت مجهول .. صورة فى صحيفة .. وقد جعلته هذه الفكرة يبكى ، ليس بسبب الموت ولكن بسبب العجـز عن البكاء على الموت ..

رجل سخيف خاو متزوج من امرأة سخيفة خاوية .. ما الذى جعلك خاويًا إلى هذا الحد ؟ ما الذى استلب كل ما فى داخلك ؟ طيلة اليوم تشاهد مسلسـلات عجيبة على الشاشات الثلاثية التى ستصير قريبًا رباعية .. أو تقود السيارة بسرعة مجنونة وكلاهما يصرخ محاولاً أن يسمع الآخر ما يقول ..

- « حاولى أن تقللى السرعة قليلاً .. »

تصرخ :

- « ماذا ؟ »

- « قلليها إلى الحد الأقصى .. »

لكنها لا تسمع وتزيد السرعة إلى ١٠٥ ميل فى الساعة ، حتى ينقطع نفسه ..

وفى البيت تضع السماعات على أذنيها ، فيشعر أن التفاهم مستحيل .. عليه أن يؤدى كلماته بطريقة (البانتومايم) .. ويأمل فى أن يخترق الغلاف البلاستيكى حولها .. بأمل فى أن يجعلها تفهم ..

ـ « هل تذكرين الفتاة التى كلمتك عنها ؟ »

ـ « أية فتاة ؟ »

ـ « جارتنا .. (كلاريس) .. »

ـ « أوه .. أعرف .. هى .. لقد رحلت .. »

ـ « رحلت ؟ لأين ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكن الأسرة كلها قد تركت الدار .. أعتقد أن هذا للأبد .. لربما ماتت الفتاة على ما أعتقد .. »

ـ « نحن لانتكلم عن نفس الفتاة .. »

ـ « بل هى نفسها .. (مكيلان) .. لقد دهمتها سيارة منذ أربعة أيام .. أعتقد أنها ماتت .. »

ـ « أنت لست متأكدة من كلامك ! »

- « نعم لست متأكدة .. أنا موقنة تمامًا .. »

- « لماذا لم تخبرينى ؟ »

- « نسيت .. »

ثم إنها وضعت السماعات على أذنيها ومن جديد غابت بعيدًا عنه ..

فى الصباح كان يشعر بالصداع والرجفة .. وقالت له (ملدريد) :

- « لا يمكن أن تكون مريضًا .. لقد كنت على خير حال أمس .. »

أغمض جفنيه على النيران وقال :

- « لا .. لم أكن على خير حال »

- « يجب أن تنهض .. إنها الظهيرة وأنت قد نمت أربع ساعات أكثر من المعتاد .. »

- « هلا جئت لى ببعض الماء والأسبيرين ؟ »

- « أنت لم تمرض قط من قبل .. »

- « حسن .. لكنى مريض الآن .. لن أذهب للعمل فاطلبى (بيتى) لى .. »

خرجت من الغرفة ثم عادت لتقول :

- « كنت غريب الأطوار أمس .. »

نظر إلى كوب الماء الذى جلبته وقال :

- « أين الأسبيرين ؟ »

- « أوه .. » - ومشت إلى الحمام ثانية - « هل حدث شىء ما ؟ »

- « لا شىء .. أشعلنا حريقًا .. »

- « أما أنا فكانت أجمل ليلة لى .. كنت أشاهد التلفزيون فى الصالة .. »

- « ماذا كان فيه ؟ »

- « برامج .. »

- « أية برامج ؟ »

- « أفضل أنواع البرامج .. المجموعة .. »

- « نعم .. المجموعة .. المجموعة .. المجموعة .. »

وضغط موضع الألم فى عينيه ، وفجأة جعلته رائحة الكيروسين يتقيأ .. صلحت زوجته وهى تنظر إلى القىء :

- « لماذا فعلت هذا ؟ »

- « أمس أحرقنا امرأة عجوزًا مع كتبها .. »

- « لحسن الحظ أن السجادة قابلة للغسيل .. »

وتناولت ممسحة وبدأت التنظيف وهى تغنى ..

- « (هيلين) .. ألن تسألينى عن ليلة أمس ؟ »

- « ماذا عنها ؟ »

- « لقد أحرقنا ألف كتاب وأحرقنا امرأة .. أحرقنا كتبًا لـ (دانتى) و(سويفت) و(ماركوس أوريليوس) »

- « ألم يكن هذا الأخير أوروبيًا ؟ »

- « لا أدرى .. »

ـ « كان أوروبيًا ومتطرفًا .. » ـ وأمسكت سماعة الهاتف وقالت ـ « أنت لا تريد منى أن أطلب (بيتى) حقًا .. »

ـ « يجب .. »

ـ « لا تصرخ .. »

ـ « أنا لا أصرخ .. ولكننى لا أستطيع أن أتصل به لأقول له إننى لن أعمل اليوم .. »

ـ « ولماذا ؟ »

فكر فى نفسه : لأنك خائف .. لأنك طفل يدعى المرض .. لأنك لو اتصلت ستتحول المحادثة إلى التالى : نعم يا كابتن .. أنا أشعر بتحسن .. سأكون عندك فى العاشرة مساءً ..

قالت له (ملدريد) :

ـ « أنت لست مريضًا .. هل تضحى بجهد كل هذه الأعوام لمجرد أن امرأة وكتبها ... »

- « كان يجب أن تريها يا (ميلى) .. »

- « هى لا تعنى شيئًا لى .. هذه مسئوليتها .. ما كان يجب أن يكون عندها كتب .. أنا أكرهها .. لقد جعلتك تتغيب عن العمل ، وسرعان ما سنجد نفسينا مطرودين .. بلا بيت ولا عمل ولا شىء .. »

- « أنت لم تكونى هناك .. لابد من شىء ما فى الكتب .. شىء لا تتصوره .. شىء يجعل امرأة تبقى فى بيت يحترق .. لابد من شىء هناك .. »

- لعلها كانت امرأة محدودة الذكاء ..

- « كانت أكثر عقلانية منك ومنى .. وقد أحرقناها .. »

- « كان عليك أن تفكر فى هذا من قبل أن تصير رجل إطفاء .. »

- « أفكر ؟ كيف أفكر وقد كان أبى وجدى رجلى الإطفاء ، وقد كبرت لأكون مثلهما .. لكنى ليلة أمس فطنت لحقيقة أخرى هى أن هناك رجلاً وراء كل كتاب .. رجلاً فكر وقضى طيلة عمره يصنع هذا الكتاب الذى نحرقه نحن فى دقيقتين .. »

- « لا تضايقنى .. فلم أفعل شيئًا .. »

- « لا أضايقك .. جميل .. لكن ألا ترين من المفيد أن يتضايق المرء من حين لآخر ؟ منذ متى شعرت حقيقة بالضيق لأى شىء مهم ؟ لأى شىء حقيقى ؟ »

وتذكر هنا المرأة التى كان الرجلان يجريان لها غسيل المعدة .. لكن كانت هذه (مليدريد) أخرى .. (ملدريد) تكمن عميقًا تحت جلد هذه ، ولم تلتق كلتا المرأتين قط ..

هنا دوى صوت من مكبر الصوت ينبئ بقدوم أحدهم على الباب .. كان هذا هو الكابتن (بيتى) نفسه .. وقد أصرت (مليدريد) على أن يكلمه زوجها عن مرضه بنفسه ..

تأكد (مونتاج) من أن الكتاب مخفى جيدًا تحت الوسادة ثم رتب الأغطية على ركبتيه ، وجلس فى الفراش .. وبعد قليل دخل الكابتن (بيتى) الغرفة مع الزوجة ويداه فى جيبيه ، وهو ينظر إلى كل شىء ما عدا (مونتاج) ..

- « أسكتى أقاربك هؤلاء .. »

قالها الكابتن للزوجة وهو يعنى صوت التلفزيون المرتفع ، فغادرت الغرفة ركضًا ، وكفت الضوضاء فى الصالة ..

جلس الكابتن على أكثر المقاعد راحة فى الغرفة ، وصمت قليلاً حتى أشعل غليونه النحاسى ونفث سحابة دخان كثيفة ..

- « فقط أردت أن آتى وأرى المريض .. »

- « وكيف خمنت ؟ »

ابتسم الرجل حتى ظهرت لثته وأسنانه شديدة البياض وقال :

- « رأيت كل شىء .. أنت كنت ستطلب إجازة هذه الليلة .. »

وراح يشعل أعوادًا من علبة ثقابه الأبدى ، ويطفئها بفمه .. يشعل أعوادًا ويطفئها .. ونظر إلى اللهب :

ـ « حسن .. متى ستتحسن ؟ »

ـ « غدًا غالبًا .. ربما بعد غد .. أول الأسبوع .. »

ـ « هذا متوقع .. هذه لحظة فى حياة كل رجل إطفاء .. والسبب أن أحدًا منكم لم يعد يتلقى تاريخ المهنة .. هذه أشياء لم يعد يعرفها إلا الرؤساء .. أنت تسأل متى بدأت مهنتنا هذه .. أقول لك إنها بدأت فى الوقت الذى نطلق عليه (الحرب الأهلية) .. الحقيقة أن عملنا لم يتضح إلا فى القرن العشرين حين ظهرت الصور الفوتوغرافية والسينما ثم التلفزيون .. وصارت الأمور أسهل .. كانت الكتب تروق لبعض الناس هنا وهناك وفى كل مكان .. كان بوسع المرء أن يكون مختلفًا .. كان العالم فسيحًا ..

« ثم فجأة امتلأ العالم بالأذرع والمرافق والأفواه .. تضاعف السكان مرارًا .. حاول أن تتخيل معى .. رجل القرن التاسع عشر بخيوله وكلابه وعرباته والحركة البطيئة .. ثم فى القرن العشرين تتسارع الحركة .. تصير الكتب أقصر .. تظهر صحف (المختارات)

و (التابلويد) .. كل شىء يغلى .. الأعمال الكلاسية تقتطع كى تناسب برامج المذياع فى القرن العشرين .. ثم تقتطع ثانية لتناسب تعليقًا على كتاب فى صحيفة يقرأ فى دقيقتين .. ثم ينتهى كتعليق من عشرة سطور فى فهرس .. ولم يعد (هاملت) إلا صفحة فى كتاب يقول : الآن يمكنك أن تقرأ كل الأعمال الكلاسية فى كتاب واحد .. أنا أعرف أنك سمعت عن (هاملت) من قبل .. بسرعة .. نظرة عين .. الآن .. لمحة بصر .. هنا هناك بسرعة .. فوق تحت .. داخل خارج .. لماذا كيف .. ماذا أين .. بنج بانج .. سياسة ؟ جملتان وعنوان !! أدر عقل الإنسان بسرعة فى آلة الطرد المركزى ، فتتطاير كل الأفكار غير المجدية المضيعة للوقت ! »

*

كانت (مليدريد) تنسق الفراش ، وارتجف قلب (مونتاج) وهى ترتب الوسادة تحت ظهره .. لن تلبث حتى تصيح : ما هذا ؟ وترفع الكتاب فى براءة مؤثرة ..

- « المدرسة صارت أقصر .. اختزلت الفلسفات والتاريخ وأهملت الأجرومية .. لماذا تتعلم أى شىء غير ضغط الأزرار وربط الصواميل وجنب المحولات ؟ الحياة صارت كلها مجرد سقطة على مؤخرتك .. بوف بانج واو !! »

قالت (ملدريد) وهى تربت على الوسادة :

- « واو ! »

كانت الآن تتحسس الحدود الخارجية للكتاب بأناملها .. والآن تعرفته وبدت الدهشة على وجهها وانفتح فمها لتسأل سؤالاً ..

- « ما هذا ؟ »

فدفع (مونتاج) بنفسه للوراء وصاح :

- « اجلسى ! » - فوثبت للوراء - « نحن نتكلم هنا ! »

واصل (بيتى) الكلام كأنما لا يسمع ما يقولان .. الآن صار غير مرئى خلف سحب الدخان الكثيف :

- « أنت تحب البيزبول .. أليس كذلك يا (مونتاج) ؟ »

- « البيزبول لعبة جيدة »

- « وتحب البولينج ؟ »

- « البولينج لعبة جيدة كذلك .. »

- « الرياضات الجماعية ممتعة وليس عليك فيها أن تفكر .. انشر المزيد من الرسوم الهزلية فى الكتب .. أعطهم صورًا أكثر .. الشوارع ملأى بأناس يذهبون إلى مكان ما .. مكان ما .. لاجئو الجازولين .. يذهبون من مكان لآخر ويتبعون القمر .. ينامون حيث نمت أنت أمس .. وينتقلون من فندق لآخر ..

« المدارس تخرج عدائين .. متسابقين .. واثبين .. بدلاً من النقاد والعارفين .. صارت كلمة (مثقف) سبة كما تستحق أن تكون .. أنت تذكر كيف كنت تخشى وتكره الصبى الذكى فى مدرستك الذى كان يحل كل

مسائل الرياضيات بسهولة .. وكيف كنت تخص هذا الصبى بالضرب والتعذيب بعد المدرسة .. يجب أن نكون سواسية .. الناس لم يولدوا متساوين كما يقول الدستور ، لكن علينا نحن أن نجعلهم متساوين .. لو كان كل إنسان كأخيه لعمت السعادة الجميع .. الكتب هى سلاح محشو عند جارك .. احرقها .. خذ الطلقة من السلاح .. ولهذا ومنذ صارت المنازل معزولة ضد الحريق ، لم يعد رجال الإطفاء مطلوبين كالسابق .. لهذا تحولوا إلى حراس لسلامة عقولنا .. مركز خوفنا المبرر من أن نكون أقل من الآخرين .. رقباء .. قضاة .. منفذون .. هذا أنت يا (مونتاج) وهذا أنا .. »

ثم سكب فى كفه بعض رماد الغليون وقال :

ـ « الناس تريد السعادة .. ونحن نقدمها لهم .. نوفر لهم المرح ودغدغة المشاعر .. »

ونظر (مونتاج) إلى زوجته الواقفة على الباب ، وكانت تحرك شفتيها .. لكنه لم يجسر على محاولة قراءة ما تقول حتى لا يلاحظ (بيتى) ..

- « السود لا يحبون كارتون (سامبو) الصغير .. احرقه .. البيض لا يحبون رواية (كوخ العم توم) .. احرقها .. صفاء العقل يا (مونتاج) .. السلام .. خذ صراعاتك إلى المحرقة .. لا تضيع وقتك فى الجنازات ، ولا تتحدث عن الذكريات ، بل احرق الجثث .. إن طائرات الهليكوبتر تحمل المحارق إلى كل أرجاء البلاد .. النار تحل كل شىء .. النار ذكية يا (مونتاج) .. النار نقية طاهرة ..

« كانت هناك فتاة من الجيران تدعى (كلاريس مكيلان) .. فتاة غريبة جدًا .. لا يمكن أن تفهم كيف حدثت أصلاً ! لدينا سجل عن أسرتها وراقبناهم جيدًا .. أنت لا تستطيع الخلاص من كل البط الشاذ فى بضعة أعوام .. ولأسباب كهذه قمنا بتخفيض

سن دخول الحضانة عامًا بعد عام .. حتى إننا اليوم ننتزعهم تقريبًا من المهد إلى الحضانة .. إن البيت قد يهدم كل ما علمه المجتمع لأفراده .. عم الفتاة كان سلوكه معاديًا للمجتمع ، والفتاة كان لها سجل مدرسى غريب .. لم تحاول قط أن تعرف (كيف) تحدث الأشياء ، ولكن (لماذا) تحدث .. من حسن حظ الفتاة التعسة أنها ماتت .. »

ـ « ماتت ؟ »

ـ « من حسن الحظ أن الشواذ من أمثالها لايحدثون كثيرًا .. اجعل الناس يعيشون فى سلام يا (مونتاج) .. أعطهم مسابقات يربحون فيها إذا تذكروا أسماء الأغانى المشهورة أو أسماء عواصم الولايات ، أو كم من القمح أنتجته (أيوا) العام الماضى(*) .. حاول أن تحشوهم بالحقائق سريعة الاحتراق حتى يشعروا بأنهم أذكياء ..

(★) كما نرى .. يبدو أن هذه الرواية ستظل مناسبة لكل زمان ومكان !!!

حتى يشعروا بأنهم يفكرون .. هكذا يشعرون بالحركة دون أن يتحركوا .. ولسوف يصيرون جميعًا سعداء .. إن الرجل الذى يفك ويعيد تركيب تلفزيون الحائط - وكل الناس بوسعهم هذا اليوم - لأسعد من الرجل الذى يحاول أن يفك الكون وهو أمر لن يتركه إلاشاعرًا بالحقارة والعزلة والتضاؤل .. »

ونهض (بيتى) قائلاً :

« أعتقد أن على الانصراف الآن .. انتهت المحاضرة، وآمل أننى أوضحت الأمور .. ما يجب أن تتذكره يا (مونتاج) هو أننا (فتية السعادة) .. فلا تتخل عن موقفك .. لاتترك أعاصير الفلسفة والتحذلق تغرق كل شىء .. »

وصافحه (بيتى) فلم يجسر (مونتاج) على الكلام، وكأن البيت كله تهاوى من حوله ..

- « كلمة أخيرة .. كل رجل إطفاء يعانى حكة

ولو مرة واحدة فى أثناء عمله .. يتساءل : ترى ماذا تقول الكتب ؟ ويحاول أن يهرش موضع الحكة هذا .. أؤكد لك يا (مونتاج) أننى قرأت بعضها لأعرف عم يدور الأمر ، ودعنى أؤكد لك أن الكتب لاتقول شيئًا .. لو كانت قصصًا فهى تتكلم عن ناس لاوجود لهم ، ولو لم تكن قصصًا فالأمر أسوأ .. أستاذ يعتبر الآخر أبله ، وفيلسوف يخنق الآخر من بلعومه .. كلهم يكافحون محاولين محو النجوم وإطفاء الشمس .. والآن ماذا لو حاول رجل إطفاء - عن غير عمد - أن يأخذ معه كتابًا إلى داره ؟ »

وارتجف (مونتاج) بينما قال (بيتى) :

- « خطأ طبيعى .. إنه الفضول لا أكثر .. نحن فى المطافئ لا نفقد حكمتنا عندئذ .. فقط نترك رجل الإطفاء أربعًا وعشرين ساعة .. لو لم يحرقه بعدها

نأتى نحن ونتولى الأمر .. والآن هل ننتظرك فى وردية الليلة ؟ »

- « لا أدرى .. »

وفكر (مونتاج) : ربما لا أعود للعمل أبدًا .. قال (بيتى) :

- « اشف سريعًا وابق كذلك .. »

وغادر الغرفة ..

نظر (مونتاج) إلى زوجته التى جلست فى الردهة تتكلم مع أحد المعلقين على شاشة التلفزيون .. كان يناديها باسمها ، والفضل فى هذا يعود إلى المحول الذى كلفه مائة دولار ، والذى يذكر اسمها كلما تحدث المعلق إلى جمهور غير محدد .. وهكذا يتم تحوير الصوت Scrambling ليخرج اسمها هى كأنه صديق مخلص ..

قال (مونتاج) لامرأته :

ـ « أنا اليوم فى أسوأ حال .. أريد تحطيم الأشياء وقتل الناس .. »

ـ « إذن خذ العربة الخنفسة و ... »

ـ « لا شكرًا »

ـ « إننى أحب قيادتها حين أشعر بما تشعر بـه .. من الممتع أن تقودها بسرعة خمسة وتسعين ميلاً فـى الريف ، حيث تقتـل الأرانـب وتـدوس الكـلاب .. صدقنـى خذها .. »

نهض وبدأ يرتدى ثيابه :

ـ « لقد كان (بيتى) على حق .. السعادة هى أهم شىء .. وأنا لسـت سعيدًا .. لا أدرى مـا حل بـى ، لكن لا بـد مـن أن أعمـل شـيئًا .. شـيئًا كبيـرًا مخيفًا .. »

ثم نهض وتناول مقعدًا وزحزحه حتى وصل إلى الباب الأمامى وصعد عليه .. مد يده وانتزع غطـاء التهوية .. وحرك يده حتى بلغت كتابًا .. دون أن ينظر له رمى به إلى الأرض .. التقط كتابين آخرين ورمى بهما أرضًا .. وواصل إلقاء الكتب .. كتب كبيرة وصغيرة .. حمراء وخضراء .. حين انتهى كان هناك عشرون كتابًا عند قدمى زوجته ..

قال لها :

- « آسف .. لم يخطر لى ذلك ، لكن يبدو أننـا الآن متورطان معًا فى هذا .. »

تراجعت (مليدريد) للوراء وكأنما ترى عددًا من الفئران عند قدميها ، وشحب وجهها وتلاحقت أنفاسها .. لفظت باسمه مرة واثنتين ، ثم حملت أحد الكتب جارية نحو موقد المطبخ ..

أمسك بها فحاولت التملص وهى تصرخ وتخمش ..



التقط كتابين آخرين ورمى بهما أرضًا .. وواصل إلقاء الكتب ..

- « لا يا (ميلى) ! توقفى ! أنت لا تعرفين ! »

وصفعها على وجهها .. واعتصر كتفيها وهزها ، فانفجرت فى البكاء ..

- « اصبرى قليلاً .. لابد أن أرى ما بها .. لو كان كلام الكابتن صحيحًا فلسوف نحرقها معًا .. هل تسمعين ؟ نحرقها معًا .. لابد أن نعرف ما دهانا ؟ أنت والدواء المنوم كل ليلة والسيارة .. وأنا وعملى .. لابد من أن نفهم .. هذه أول مرة أطلب فيها شيئًا منك .. أريدك معى بشدة فى هذه الساعات .. »

كفت عن البكاء .. وجلست على الأرض .. لمست ساقها واحدًا من الكتب فجذبتها فى خوف ..

أمسك بأحد الكتب وفتحه وقرر أن يبدأ القراءة من البداية ..

هنا دوى صوت مكبر الصوت .. هناك واحد على الباب .. صاحت الزوجة فى رعب :

ـ « إنه هو ! لقد عاد ! »

ـ « لن نفتح له .. »

كانت رغبة عارمة تدفعه إلى أن يخفى الكتب حالاً فى فتحة التهوية ، لكنه لن يستطيع مواجهة (بيتى) فى كل الأحوال .. وصاحت الزوجة :

ـ « لسوف يدخل ويحرق الكتب ويحرقنا .. »

وشعرا بصوت وراء الباب كأنما أحدهم يقف هناك يصغى .. كأنما هناك من يخدش الباب بأظفاره الحادة ، وبعد قليل ابتعدت الخطوات ..

وواصل (مونتاج) القراءة :

ـ « من المؤكد أن أحد عشر ألف شخص جربوا الموت أكثر مما جربوا كسر البيضة من طرفها المستدق .. »

نظرت له فى رعب وقالت :

- « مامعنى هذا ! هذا الكلام لامعنى له .. لقد كان (بيتى) على حق .. الكتب لا تقول إلا هراء .. »

- « ربما لأننا لم نقرأ بما يكفى .. سأجرب مرة أخرى ومن البداية .. »

★ ★ ★

الجزء الثاني

الغربال والرمال

قضيا العصر فى القراءة بينما أمطار (نوفمبر) الباردة تنهمر على المنزل .. وكان التلفزيون فى الصالة صامتًا خاليًا من النساء اللاتى يلبسن الشباك الذهبية والرجال ذوى السترات السوداء ، يسحبون أرنب الفرص من القبعة .. وكان (مونتاج) يعيد قراءة تلك الفقرة للمرة الثلاثين :

- « لا يمكن أن نعرف اللحظة الدقيقة التى تتكون فيها الصداقة .. كما تملأ الوعاء قطرة قطرة ، هناك تلك القطرة الأخيرة التى تجعله يفيض ، وهكذا فى سلسلة من العواطف هناك عاطفة أخيرة تجعل القلب يفيض بما فيه .. »

كان قلبه يرتجف توترًا ، وقد دخل المطبخ عدة مرات فقط ليتأمل المطر المنهمر على زجاج النوافذ .. وارتجفا إذ سمعا صوت خدش على الباب الأمامى ..

دوى صوت طائرات نفاثة تعبر السماء الممطرة فوق البيت فقال (مونتاج) :

- « إننى أتساءل كيف يمر هؤلاء الطيارون فى السماء كل ثانية من حياتنا .. ألأننا أثرياء والعالم فقير ؟ ألأننا نموت من التخمة بينما شعوب العالم الأخرى تتضور جوعًا ؟ أترى هذا هو السبب الذى يكرهنا العالم من أجله إلى هذا الحد ؟ ربما توجد الإجابة فى الكتب .. »

مسكين أنت يا (مونتاج) .. لكن كيف تجد العون وأين ؟ أين تجد معلمين بعد فوات الأوان ؟

تذكر الرجل العجوز الذى قابله يومًا فى الحديقة وتحدثا عن الكتب .. وتذكر كيف أن الرجل أعطاه عنوانه غير عارف أنه من رجال الإطفاء .. جرى إلى الملف الذى يحمل عنوان (تحريات مستقبلة) ، وبحث عن رقم الهاتف ، ثم طلبه وسأل عمن يدعى الأستاذ (فابر) ..

جاءه صوت الرجل يتساءل عمن هنالك ، فسأله على الفور :

- « بروفسور .. أريد أن أعرف منك عدد نسخ التوراةَ الباقيةَ فى هذا البلد .. »

- « وكيف لى أن أعرف ؟ من المتكلم ؟ »

- « ونسخ مسرحيات (شكسبير) ؟ كم عددها وأين أجدها ؟ »

- « أعتقد أن هذا شرك .. أنت تعرف أنه لايوجد نسخةَ واحدةَ من (شكسبير) فى البلاد كلها اليوم .. وداعًا .. »

ووضع (فابر) السماعةَ ..

كان (مونتاج) يعرف أنه لاتوجد نسخةَ واحدةَ فى البلاد كلها ، لكنه أراد أن يسمع هذا من (فابر) نفسه .. واتجه إلى زوجتـه التى تشاهد التلفزيون وأراها كتابًا وقال :

- « تصورى إذن أن هذه هى النسخةَ الوحيدةَ من (العهد القديم والجديد) فى العالم اليوم ؟ »

- « قلت لـك يجب أن تعيدها لـ (بيتـى) .. إنـه خمن أن معك كتابًا »

- « لا أهتم لأنـه لايعرف أيها معى .. لكن أى كتاب أعيده له إذن كبديل لهذا ؟ هل أعيد (ثورو) أم (جيفرسون) ؟ المشكلة أننى لـو أعدت كتابًا وكان (بيتى) يعرف بالضبط أى كتاب سرقت ، فلسـوف يخمن أن عندى مكتبة هائلة هنا .. »

صرخت (ملدريد) وهى موشكة على الذوبـان فى مكانها كدمية من شمع :

- « هل ترى ؟ أنت على وشك أن تخرب بيتنا .. »

غادر (مونتاج) الدار وراح يركـض فـى الطرقات .. ثم ركب مترو الأنفاق الهوائى ..

ذات مرة كان صبيًا وقد جلس على كثيب رملى أصفر ، فى يوم صيف ، يمـلأ بالرمـال منخـلاً ، لأن ابن عم قاسيًا قال له لو ملأت هذا الغربال بالرمال فسوف أعطيك قرشًا .. وكذا قضى الوقت يملأ الغربال ويمـلأ الغربال ،

لكن الرمال كانت تتسرب من أسفل بلا توقف .. يداه منهكتان والرمال حارقة والدموع تسيل على خديه .. وقد خطر له اليوم أنه لو قرأ الكتب بسرعة فلربما استطاع أن يملأ الغربال ..

كانت التوراة فى يده وقد أدرك أنه خلال ساعات يجب أن يعطيها لـ (بيتى) ، لهذا قرر أن يقرأ بأسرع ما يستطيع أكبر قدر ممكن ، وأن يحاول أن يحفظ ما يطالعه قدر الإمكان ، لعل شيئًا يبقى منها فى ذاكرته .. الناس ينظرون له فى ذعر ورهبة فيرون الكتاب المفتوح بين يديه .. لا بد أنه مجنون ..

أخيرًا بلغ وجهته فدق الباب ..

ـ « من هذا ؟ »

ـ « مونتاج) .. دعنى أدخل .. »

ـ « انصرف من فضلك .. »

ـ « أقسم إننى لن أوذيك .. »

انفتح الباب واختلس (فابر) النظر .. بدا هشًا جدًا

عجوزًا جدًا خائفًا جدًا .. كأنما لم يغادر الدار منذ أعوام .. ثم سقطت عيناه على الكتاب تحت إبط (مونتاج) عندها لم يعد عجوزًا ولم يعد خائفًا ..

- « آسف بشدة .. لكن على المرء أن يكون حذرًا .. »

كانت غرفة النوم مفتوحة ، وكان (مونتاج) يبصر بها نوعًا من الآلات المعقدة .. لاحظ الرجل أن (مونتاج) ينظر من فوق كتفه ، فاستدار وأغلق الباب .. ثم أمسك بالكتاب وسأله :

- « من أين جئت به ؟ »

- « سرقته .. »

نظر الرجل لوجهه للحظة ثم قال :

- « أنت شجاع .. » - ثم حك ركبتيه ومد يده للكتاب - « هل تسمح ؟ »

وتحسس الكتاب في شغف وقال :

- « أنا لست متدينًا .. قد مر وقت طويل .. لكنه ما زال طيبًا كما عرفته .. اليوم صار الدين مجرد سلعة تجارية تفرض على المتدينين.. »

وتشمم الكتاب وقال :

ـ « هل تعرف أن للكتب رائحة جوز الطيب أو التوابل القادمة من بلاد نائية ؟ كنت أحب شمها وأنا طفل .. أنت تنظر يا مستر (مونتاج) إلى جبان .. لقد رأيت إلام تصير الأمور منذ زمن لكنى لم أقل شيئًا .. صمت .. حتى لم يعد من نفع للكلام .. والآن أتمنى لو قلت لى لماذا جئت هنا .. »

ـ « ما عاد أحد يصغى لى .. سئمت الكلام مع الجدران .. أريد من يصغى لما أقول .. أريدك أن تجعلنى أفهم ما أقرؤه .. »

ـ « وما الذى حرك فيك هذه الرغبة ؟ »

ـ « لا أدرى . لدى وزوجتى كل ما نريد كى نكون سعيدين ، وبرغم هذا لسنا سعيدين .. بحثت عن الشىء الناقص فى حياتنا فلم أجد إلا الكتب التى ظللت أحرقها عشر سنوات .. لعلها تعيننى على أن أكون سعيدًا .. »

ـ « لايوجد شىء سحرى فى الكتب .. إن هى إلا مجرد

أوعية حفظنا فيها أشياء خفنا أن ننساها .. السحر هو ما تقول الكتب .. الطريقة التى تخيط بها رقع الكون معًا لتصنع منها ثوبًا واحدًا لنا .. إنها تظهر الثقوب فى الحياة ، ولهذا هى مخيفة .. إن الناس العاديين يرغبون فى وجه جميل للحياة كأنه تمثال شمعى ..

« التلفزيون يغرقك فى بحر من الأصوات والألوان بحيث لاتجد الوقت الكافى لتفكر أو تنتقد .. إنه يقدم لك الأفكار الجاهزة ولا يسمح لك بالانتقاد الذى يسمح به الكتاب .. وعلى كل حال ، ومهما كان الأمر سيئًا فالناس بالفعل تشعر بالسعادة وتستمتع بوقتها .. لهذا يا بنى كف عن هذا .. عد لقفصك وكف عن إقناع نفسك بأنك لست سوى سنجاب حبيس .. »

ـ « إذن أنت لا تهتم .. »

ـ « أنا أهتم لدرجة المرض .. عمت مساء .. عمت مساء .. »

نهض (مونتاج) وأمسك بالكتاب ، وسأل الرجل :

ـ « هل تريد هذا ؟ »

ـ « إننى لأضحى بذراعى اليمنى كى أظفر به .. »

ودون أن يدرى كيف فعل هذا ، بدأ (مونتاج) يمزق غلاف الكتاب وأول صفحتين منه ..

ـ « ماذا تفعل أيها المجنون ؟ »

لكن (مونتاج) واصل التمزيق ، وراحت الأوراق تتكوم على الأرض حوله ، وقال (مونتاج) :

ـ « من يستطيع منعى ؟ أنا رجل إطفاء وبوسعى أن أبيدك ! »

ارتمى البروفسور على مقعد وغطى وجهه ، وقال فى وهن :

ـ « ماذا تريد ؟ »

ـ « أريد أن تعلمنى .. »

ـ « حسن .. حسن .. لكن كف عن تمزيق الكتاب »

ووضع (مُونتاج) الكتاب جانبًا فسأله البروفسور :

ـ « (مونتاجٌ) .. هل معك مال ؟ »

ـ « حوالى أربعمائة إلى خمسمائة دولار .. لم ؟ »

ـ « عرفت رجلاً فى الجامعة كان يقوم بالطباعـة .. يمكننا أن نستعين بهذا المطبعجى الذى لم يعد أحد يريده .. »

ـ « لكنى ما زلت بحاجـة إلـى مظلـة تحمينـى من المطر .. أنا خائف من الكابتن ، وهو واسـع الحجـة وسيعرف كيف يعيدنـى إلـى عمـل الإطفـاء .. فهـل يمكنك أن تخبرنى كيف أنجو منه ؟ لا أريد أن أعود إلى الصورة التى كنتها فى الأسبوع المـاضى ، حين كنت أحرق الكتب وأتلذذ بذلك .. »

لم يرد الرجل ، وأخذ نفسًا عميقًا ثم نظر إلـى غرفة النوم .. نظرة لم تفـت (مونتـاج) .. ثم أخذ نفسًا آخر ، وأغمض عينيه ..

ـ « حسن ؟ »

- « (مونتاج) .. كنت سأتركك تغادر منزلى الآن لأننى جبان .. لكن هناك شيئًا أرغب فى أن تراه .. »

وفتح (فابر) باب غرفة النوم ، وكانت هناك منضدة فوقها بعض المعدات المعدنية ، والبوبينات والبلورات والأسلاك الرفيعة ..

- « أنا مغرم بالإلكترونيات ، وقد قضيت أعوامًا أبتكر هذه الأشياء .. دفعت ثمنها من المضاربة فى أسواق الأسهم ، وهى الملجأ الأخير للأذكياء العاطلين .. وانتظرت نصف عمرى حتى يأتى من أتكلم معه .. يوم قابلتك فى الحديقة توقعت أنك رجل إطفاء ، وتوقعت أنك ستأتى إلى دارى حاملاً الصداقة أو النار .. ما كان بوسعى أن أعرف .. »

- « تبدو لى هذه الأشياء كجهاز راديو .. »

- « بل وأكثر من هذا .. هذا جهاز تنصت لو أنك

وضعته فى أذنك لأمكننى أن أجلس فى دارى مستريحًا وأصغى لكل مايقول رجال الإطفاء .. سأكون أنا ملكة النحل آمنة فى خليتها ، وأنت تلعب دور ذكر النحل .. ستضع هذا فى أذنك وتذهب إلى مبنى الحريق ، ولسوف أسمع أنا مايقوله لك الكابتن (بيتى) وأرسل لك إجابتى .. هل يضايقك هذا ؟ والآن وداعًا وحظًا طيبًا .. »

وخرج (مونتاج) إلى الشارع المظلم يرمق العالم .. وكانت السماء مكفهرة تنذر بالحرب القادمة ، وكأنما القمر سيهوى قريبًا على الأرض ليحيلها إلى غبار أبيض .. مر على المصرف الذى يعمل طيلة الليل ، فسحب بعض المال ..

قال بصوت هامس :

- « (فابر) .. لقد فعلت ما طلبته منى .. لكنى حتى هذه اللحظة لم أفعل إلا مايقال لى أن أفعله .. لقد قمت

بتغيير الجانب الذى أنا فيه ، وبرغم هذا مازلت أؤمر فأمتثل .. »

ـ « أنت تتحسن مادمت تقول هذا .. »

ـ « متى يمكننى أن أقوم بالتفكير لنفسى ؟ »

ـ « قريبًا جدًا .. لكن ثق بى أولاً .. هل تريد أن أقرأ لك قليلاً ؟ أنا قليل النوم ويمكن أن أقرأ لك قليلاً ، ويمكن أن أقرأ لك فى أثناء نومك أنت .. يقولون إن المرء يتذكر ما يهمس فى أذنه فى أثناء النوم .. »

ـ « موافق »

كان من الممتع أن يسمع صوت الرجل العجوز المنهك يتردد فى أذنه فى الليل الصامت ، وشعر بأنه يعرف الرجل من دهور .. الآن لم يعد (مونتاج) واحدًا بل هو اثنان ..

كان من الممتع أن يسمع العجوز وهو يكلمه ويرشده بينما هو متجه إلى مبنى الإطفاء ..

ـ « كن رفيقًا بالناس يا (مونتاج) فهم لايعلمون .. هم لايعرفون أنهم كنيزك هائل ملتهب بالنيران يعبر السموات لكنه لابد أن يرتطم بالأرض يومًا ما .. هم الآن لايرون إلا الضوء والوهج ..

« أنا معجب بشبابك وحماستك ، لكنى أريدك أن تشعر بالشيخوخة .. أريد بعضًا من جبنى فيك الليلة .. حين تقابل الكابتن ادن منه بحذر .. دعنى أسمعه عن طريقك ..

« لا تخف من الأخطاء .. لو داريت جهلك لما عاقبك أحد ، ولن تتعلم أبدًا .. نحن الآن توءمان ولم تعد وحدك .. ولسوف أمنحك العون والنصح إذا ما ضيق عليك (بيتى) الخناق .. »

لم يكن الكلب الآلى هناك ، وقد وقف مبنى الإطفاء صامتًا ، حين انزلق (مونتاج) فوق العمود النحاسى .. وكان قلبه يخفق .. وكان (بيتى) واقفًا عند الفتحة وظهره له كأنه لا ينتظره ..

فقط قال للرجال الذين يلعبون الورق :

- « حسن .. الآن يأتى مخلوق غريب يدعى فى كل لغات العالم بلفظة (أحمق) .. »

وفتح كفه كأنما ينتظر مكافأة ، فدس (مونتاج) الكتاب فيها .. فألقى (بيتى) الكتاب فى سلة المهملات دون أن ينظر لعنوانه .. وقال مشعلاً سيجارًا :

- « مرحبا بعودتك يا (مونتاج) وقد زالت الحمى وولى السقم .. هل تشاركنا لعبة (البوكر) القادمة ؟ »

كان (مونتاج) يلعب الورق مرتبكًا شارد الذهن .. شاعرًا كأن يديه اللتين تجرأتا ولمستا (شكسبير) قد صارتا ملوثتين بالدم ، وأن ذنبهما جلى للجميع وخاصة (بيتى) الذى توشك نظراته أن تكون حارقة .. ولمرتين اضطر إلى أن يغادر المجلس ويدخل الحمام ليغسل يديه ..

قال (بيتى) وهو ينظر إلى (مونتاج) :

ـ « نحن لانكون وحدنا حين تصحبنا الأفكار النبيلة .. لكن البابا (ألكسندر) قال : (الكلمات كأوراق الشجر .. وحين تجد الكثير منها ، يندر أن تجد تحتها فاكهة ذات قيمة) .. ما رأيك فى هذا يا (مونتاج) ؟ »

همس (فابر) فى جهاز اللاسلكى :

ـ « خذ الحذر .. »

ـ أو هذه : (قليل من العلم شىء خطير .. فاشرب حتى ترتوى لكن لا تكتف بتذوق ماء الينابيع .. هناك تكفى رشفات معدودة لتسميم العقل .. بينما الجرعات الكبرى تجعل العقل يفيق) .. إلام يقودك هذا ؟ سأخبرك .. معناه أنك حين تقرأ بضعة أسطر يتسمم عقلك بالكامل ، وتجد نفسك متأهبًا لتدمير العالم وقتل النساء والأطفال .. أنا أعرف هذا كله لأننى مررت به .. »

نظر له (مونتاج) ولم يجد ما يقول .. هنا دق الجرس .. وبدأ صوت التيكرز يطبع العنوان الذى جاء منه البلاغ .. اتجه (بيتى) يبطء مبالغ فيه ، وأوراق البوكر فى يده ، إلى الهاتف ومزق القصاصة التى تحمل العنوان .. نظر له ثم دسه فى جيبه وعاد إلى الجلوس .. نظر له الرجال فى دهشة فقال :

ـ « يمكن للبلاغ أن ينتظر أربعين ثانية حتى أجردكم من المال .. ولكن .. ليكن .. سنكمل هذا الدور فيما بعد .. فقط ضعوا أوراقكم ووجهها لأسفل على المنضدة ، وهلموا إلى العربة »

ثم نظر إلى (مونتاج) وقال :

ـ « (مونتاج) .. لاتبدو لى على ما يرام .. أكره فكرة أن المرض .. »

ـ « أنا على ما يرام .. »

وتشبث الرجلان بالقضيب النحاسى .. وسرعان

ما انزلقا إلى التنين البخارى الذى يزأر إذ يعـود إلـى الحياة .. وصاح الكابتن :

- « هلموا بنا ! »

ما كان الكابتن معتادًا القيادة بنفسه لكنه الليلة تولى قيادة المركبة ، وراح المشمع الأسود الذى يرتديه يتطاير فى الهواء فكأنه وطواط آدمى هائل ينقض على عجلة القيادة .. وراح خداه الورديان يلمعان فى الظلام ، وهو يضحك فى توحش ..

- « هلموا بنا .. هلموا كى نمنح العالم السعادة يا (مونتاج) .. »

وتوقفت العربة وهبط الرجال منها ، أما (مونتاج) فلم يستطع أن يفك قبضته عن الحاجز الذى يتمسك به ..

لن أستطيع عمل هذا .. كيف أعود لحرق الكتب ؟ ودنا منه (بيتى) وقد صارت له رائحة الريح التى عصفت به طيلة الرحلة ونظر له فى إمعان :

ـ « والآن يا (مونتاج) ؟ »

نظر له (مونتاج) ولم يتكلم وإن غمره الذهول ..

أخيرًا قال (مونتاج) ببطء :

ـ « لماذا وقفنا أمام بيتى ؟ »

★ ★ ★

الجزء الثالث

نيران الحرق اللامعة

تألقت الأنوار وانفتحت أبواب المنازل عبر الشارع لمشاهدة هذا الكرنفال .. ووقف (بيتى) و(مونتاج) يحدقان فى المنزل أمامهما .. أحدهما برضا جاف والآخر بذهول .. فى الدائرة التى ستلتهمها النيران بعد قليل .

قال (بيتى) :

- « حسن .. هأنتذا قد فعلتها .. (مونتاج) العجوز حاول أن يطير قرب الشمس ، وها هو ذا قد حرق جناحيه .. وهو يتساءل لماذا .. ألم ألمح بما يكفى حين أرسلت الكلب إلى دارك ؟ »

كان وجه (مونتاج) خاليًا من التعبير .. ووجد أنه صار صنمًا ينظر إلى باب الجيران الذى تحيطه الزهور .. فصاح (بيتى) :

ـ « لا .. لا أصدق أن تكون تلك البلهاء خدعتك .. زهور .. فراش .. غروب .. كل هذا فى ملفها .. رباه ! انظر لهذه النظرة المريضة على وجهك ! لقد حامت حولك راسمة على وجهها تعبير (أنا أكثر منك طهراً) .. هؤلاء لا يملكون موهبة إلا أن يجعلوا الآخرين يشعرون بالذنب .. إنهم ينهضون كشمس منتصف الليل ليملئوا فراشك بالعرق ! »

وانفتح الباب الأمامى وبرزت (ملدريد) وهى تجرى ، وقد تقلصت قبضتها على حقيبة ثيابها ، بينما عربة أجرة تتوقف .

ـ « مليدريد ! »

جرت وجسدها متصلب ، ووجهها معفر بالمساحيق ، ولم يعد لها فم لأنها لم تضع أحمر شفاه ..

ـ « (مليدريد) .. أنت لم تقدمى هذا البلاغ ! »

وضعت الحقيبة فى سيارة الأجرة ، وركبت وهى تغمغم :

- « يا للأسرة المسكينة .. يا للأسرة المسكينة .. .. كل شيء ضاع .. كل شيء ضاع الآن .. »

ووضع (بيتى) يده على كتف (مونتاج) ، بينما سيارة الأجرة تختفى بسرعة سبعين ميلا فى الساعة .. دوى صوت تحطيم ، ودار (مونتاج) حول نفسه ليرى (ستونمان) و(بلاك) يحملان الفئوس ويهشمان زجاج النوافذ ليمنحا النار المزيد من التهوية .. وقال (مونتاج) :

- « هذا يحدث لى أنا .. »

قال (بيتى) :

- « من المدهش أن كل واحد يؤمن بأن هذا لن يحدث لى أنا .. الآخرون سيموتون وأنا سأعيش للأبد .. لا تبعات ولا مسئوليات ، لكن ما إن تصل التبعات إليك يكون الوقت متأخرًا جدًا .. أليس كذلك يا (مونتاج) قال (فابر) فى سماعة الأذن :

- « (مونتاج) .. هل يمكنك الابتعاد الآن ؟ »

حاول (مونتاج) الابتعاد ، لكنه لم يشعر بالخرسانة

تحت قدميه ، ولم يشعر بالعشب .. وأشعل (بيتى) قاذف اللهب وقال :

ـ « ترى ما الجميل إلى هذا الحد فى النار ؟ مهما بلغ عمرنا فما الذى يفتننا فيها ؟ ما هى النار ؟ العلماء يقولون سفسطة عن الاحتكاك والجزيئات لكنهم لايعلمون حقًا ما هى ، وجمالها أنها تدمر التبعات والمسئوليات معًا .. كلما تعقدت مشكلة ما فعليك بالمحرقة .. والآن يا (مونتاج) أنت عبء ، ولسوف ترفع النار هذا العبء عن كاهلى .. نار مطهرة .. فنية .. عملية .. »

كان (مونتاج) يرمق المشهد الغريب ، والأثاث الملقى على الأرض يحترق فى هذه الساعة من الليل ، بينما الكتب تصفر أوراقها وتتفحم .. عندها تبدو سخيفة لاتستحق كل هذا العناء .. (مليدريد) بالطبع هى من فعلها .. هى من عرفت أين يدارى الكتب وأبلغت رجال الإطفاء .. (مليدريد) .. (مليدريد) ..

ـ « الآن يا (مونتاج) أريدك أنت أن تحرق بيتك بقاذف النار .. أريد أن تطهر نفسك بنفسك .. »

تناول (مونتاج) قاذف اللهب وصوبه ، فخرجت منـه ألسنة النيران مفعمة بالحرارة والعاطفة والضوء أكثر مما حسبه فى القاذف . حرق جدران غرفة النوم وصندوق مساحيق التجميل ، ومائدة الطعام والأطباق وكل ما قد يذكره بأنه عاش هنا ، فى هذا المنزل المقفر مع امرأة غريبة ستنساه غدًا .. بل نسيته الآن بالفعل وهى تصغى للراديو المثبت فى أذنها .. لو لم يكن هناك حل لمشكلته فالآن لم تعد هناك مشكلة أيضًا ! النار هى دواء كل شىء .. حرق غرفة التلفزيون فانفجرت الدوائر الكهربية وأعمدة التفريغ ، كأنما أراد أن يهدى الغرفة تلك الزهرة الصفراء الكبيرة الملتهبة .. وقال له (بيتى) :

- « حين تنتهى ، أنت رهن الاعتقال .. »

الآن صار السيرك كومة من الرماد الأسود .. ووقف (مونتاج) وقاذف اللهب فى يده ، والعرق يسيل أنهارًا تحت إبطيه ، ووجهه صار مكسوًا بالسناج .. فى النهاية استطاع أن يتكلم :



حرق جدران غرفة النوم وصندوق مساحيق التجميل ، ومائدة الطعام والأطباق وكل ما قد يذكره بأنه عاش هنا .

- « أكانت زوجتى صاحبة البلاغ ؟ »

هز (بيتى) رأسه وقال :

- « من الحمق أن تعتقد أن قراءتك بعض الشعر يمكنها أن تجعلك تمشى على المياه .. فلتر إلى أين قادتك الكتب .. أنت فى الوحل حتى شفتيك ، ولو أننى هززت إصبعى الأصغر لغرقت أنت .. »

شعر (مونتاج) بالوهن والضعف وبأن ساقيه لاتتحملان ثقله .. وضربه (بيتى) على رأسه ضربة جعلته يسقط للوراء .. وسقطت السماعة الخضراء التى كان (فابر) يهمس فيها ، فالتقطها (بيتى) مقطبًا ..

- « حسن .. الأمر أخطر مما توقعت .. رأيتك تميل رأسك أكثر من مرة كأنك تصغى .. لسوف نقتفى أثر هذه ونظفر بصديقك .. »

- « لا ! »

قالها (مونتاج) ورفع صمام الأمان عن قاذف اللهب ..

لم يتحرك (بيتى) لكنه نظر إلى يدى (مونتاج) فى عدم فهم ، و(مونتاج) نفسه نظر ليديه كأنما يرى ما تنتويان عمله .. فيما بعد لم يعرف هل كانت يداه هما الفاعلتان أم تلك النظرة الساخرة المتهكمة فى عينى (بيتى) التى دفعته إلى اقتراف القتل ..

فى اللحظة التالية تحول (بيتى) إلى وهج صارخ .. لم يعد له علاقة بالبشر وسط النار السائلة التى صوبها (مونتاج) عليه .. وصدر صوت هسيس كأنها بصقة هائلة تغلى فوق موقد ساخن لدرجة الاحمرار .. وسد (مونتاج) أذنيه كى لايسمع الصوت .. وصرخ .. صرخ .. صرخ .. وفى النهاية تكوم (بيتى) على الأرض ..

صاح (مونتاج) فى رجلى الإطفاء الآخرين ، وهو يغالب الغثيان :

ـ « استديرا .. »

استدارا بوجهين أبيضين من الرعب والعرق يغمرهما ، فأطلق اللهب على رأسيهما حتى طارت الخوذتان وسقطا أرضًا بلا حراك ...

ومن ركن الزقاق جاء الرعب الميكانيكى .. يثب على أرجله الثمانية وسحابة من الدخان الأسود تحيط به ، وإبرة (البروكايين) تلوح غضبى فى الهواء .. فتلقاه (مونتاج) بهدية النيران كأنها زهرة ذات بتلات حمراء وزرقاء وصفراء .. طار الكلب الآلى إلى الوراء ، ولم يجد الوقت الكافى إلا ليوخز ركبة (مونتاج) بإبرته ، ثم ليصطدم بشجرة ومعه النيران .. حاول أن يطعن عدة مرات بالإبرة ، قبل أن ينفجر وتتبعثر أجزاؤه الإلكترونية فى كل صوب ..

كان (مونتاج) الآن يشعر بتنميل شديد فى ركبته ، وخشى أن يفقدها .. نهض فوجد أنه لايشعر بها .. إنه يجرها خلفه كأنها كفارة عن خطيئة لايعرف ما هى بالضبط .. الشارع الآن خال مظلم إلا من المنزل الذى يحترق .. الكلب هنا .. (بيتى) هناك .. الرجلان فى مكان ما ..

(بيتى) .. أنت لم تعد مشكلة .. كنت أنت القائل دومًا : لا تواجه المشاكل .. بل احرقها .. وداعًا يا كابتن ..

أنت أحمق يا (مونتاج) .. أحمق لعين .. معتوه .. معتوه جدًا .. أحمق .. ومعتوه .. انظر إلى الفوضى .. كل هذا بسبب حدة الطبع والغرور .. لم تكد تبدأ وهأنتذا قد تقيأت كل شىء على الآخرين وعلى نفسك ..

راح يبحث فى الحديقة فوجد أربعة كتب لم تطلها النيران .. لقد نسيت (مليدريد) هذه ولسوف ينقذها ..

صوت عربات الإطفاء قادمة من بعيد .. راح يثب فوق ساق واحدة مبتعدًا .. (بيتى) أراد أن يموت .. لاشك فى هذا .. من الغريب أن تقف تبتسم بسخرية فى وجه من يهددونك بالموت ، وبهذا تجعلهم يجنون و .. نعم .. (بيتى) أراد الموت وقد ناله .. آه .. رباه! أنا آسف .. أنا آسف ..

حاول أن يسترجع أيامه السابقة .. حملات الحريق .. ذبابات النار .. الاستدعاءات والبلاغات .. رباه .. كل هذا قبل الغربال والرمال .. كل هذه التغيرات فى بضعة أيام ! إنها أكثر مما يجب بالنسبة لعمر كامل ..

الآن بدأت رجله تتحول إلى رجل من جديد ، واستعادت إحساسها ..

عليه أن يفر وأن يتماسك قبل أن يجدوه .. عليه أن يفر .. ولكن لأين ؟ ليس لديه مكان يفر إليه .. ليس لديه صديق إلا (فابر) .. عندها أدرك أنه فى الحقيقة يجرى نحو بيت (فابر) .. لكن (فابر) لن يخبئه .. سيكون هذا انتحارًا حتى مجرد المحاولة .. لكنه سيذهب على كل حال .. ومن عقل (فابر) سيجد الوقود الذى يعيد له إيمانه بقدرته على الاستمرار حيًا ..

ونظر للسماء ليرى طائرات هليكوبتر الشرطة .. دستتان منها تحوم كالفراش الذى أربكه الخريف .. تنقب عنه فى كل صوب .. تهبط كأنها رقائق الثلج تنحدر للأرض ..

مشى فى الشارع الخالى، الذى بدا له كحلبة مصارعة .. تنتظر ضحايا مجهولين، سوف يواجهون قتلة مجهولين ، ومن مكان ما سمع مذياعًا يعلن الخبر : لقد تم إعلان الحرب ..

امش ببطء .. بهدوء .. لاتستتر .. لاتبد مهمومًا .. امش فحسب .. امش .. امش ..

واقتربت منه سيارة بسرعة لاتصدق .. وبدا أنها تزيد من سرعتها .. خطر له أنها سيارة شرطة وأنهم رأوه ، لكنها مرت على بعد سنتيمترات منه ، وسمع صوت ضحكات الصبية من داخلها .. أترى هؤلاء هم من قتلوا (كلاريس) فى إحدى الليالى ؟ لابد أنهم أرادوا أن يدهموه ويتسلوا بقتله ، ثم عدلوا عن ذلك كى لاتنقلب السيارة ..

سرعان ما وصل (مونتاج) إلى البيت الذى اختاره .. تسلل عبر الحديقة الخلفية ، وتساءل فى سره : مسز (بلاك) .. أتراك نائمة الآن ؟ هذا محزن ، لكن زوجك أحرق بيوت الكثيرين دون أن يسأل أو يندم .. والآن لابد من أن يأتى دورك .. تسلل إلى الفناء فالمطبخ ، ووضع الكتب التى يحملها هناك .. ثم غادر المكان مسرعًا ..

ومشى فى شوارع المدينة ، وفى طريقه اتصل بالإنذار من كابينة هاتف خارج متجر موصد .. سرعان ما سمع صوت السرينات وجاءت سيارات الإطفاء ..

جاءت لتحرق بيت المستر (بلاك) .. لتجعل زوجته تقف ترتجف فى هواء الصباح الباكر البارد بينما يتداعى السقف .. لكنها ما زالت نائمة حاليًا ..

- « (فابر) ! »

تأخر الرجل كثيرًا حتى فتح الباب الخلفى ، لكنه فى النهاية جاء ووقف الرجلان يتبادلان النظرات ، كأنما لا يؤمن كل منهما بوجود الآخر .. فى النهاية أدخله الرجل ووقف على الباب بعض الوقت يسترق السمع .. ثم أغلقه وعاد .. قال (مونتاج) :

- « قد مات الكابتن ، واحترق جهاز السماع .. كان ينوى أن يقتفى أثرك ، لهذا أحرقته بقاذف اللهب .. (بيتى) كان صاحبى وقد أحرقته .. احترق منزلى .. (ميلى) قد رحلت .. وضعت بعض الكتب لألفق تهمة لصديق .. رباه ! ما أكثر الأشياء التى قمت بها فى أسبوع !! »

ومد يده بما كان معه من مال إلى الرجل وقال :

ـ « هذه مدخراتى .. احتفظ بها لعلك تحتاج إليها .. ربما أكون أنا ميتًا عند الظهيرة »

لم يعلق (فابر) وإنما قال :

ـ « هل تعرف أن الحرب قد بدأت ؟ »

ـ « سمعت هذا فى الطريق .. »

ـ « رباه ! لشد ما تبدو بعيدة بالنسبة لمشاكلنا هنا .. أنصحك أن تتجه إلى النهر .. حاول أن تتبع الخطوط الحديدية العتيقة كى تقودك إلى الريف .. يقال إن الريف يزخر بالمتشردين من هنا إلى (لوس أنجليس) .. هناك الكثير من الدرجات الجامعية من (هارفارد) متناثرة على طول الطريق .. إنهم يحاولون البقاء على قيد الحياة، والحكومة لم تعتبرهم قط خطرًا إلى الحد الذى يدفعها لمطاردتهم .. حاول أن تقابلهم ولسوف ألحق بك فى (سانت لويس) .. سأركب حافلة الخامسة صباحًا .. أما عن مالك فلسوف أستخدمه فيما يفيد .. هل تبغى النوم بعض الوقت ؟ »

ـ « أفضل مواصلة الهرب .. »

ونهض الرجل إلى غرفة النوم ، فأزاح بعض الأغطية عن جهاز تلفزيون صغير فى حجم البطاقة البريدية ، وفتحه فظهر على الشاشة وجه (مونتاج) فيما قال المذيع :

ـ « م .. و .. ن .. ت .. ا .. ج .. (جاى مونتاج) .. مازال هاربًا ، لكن الشرطة أرسلت فى إثره كلبًا إلكترونيًّا جديدًا ، وهذه الكلاب لا تفشل أبدًا .. الكلب الإلكترونى يمكنه تذكر عشرة آلاف رائحة دون خطأ .. يسرنا الليلة أن نقدم لكم مطاردة (مونتاج) فى السهرة عبر الكاميرات التلفزيونية ، التى زودت بها طائراتنا الهليكوبتر .. »

ارتجف (فابر) ونظر إلى جدران منزله .. إلى غرفة النوم .. إلى الأريكة التى جلس فوقها (مونتاج) .. وتشمم (مونتاج) الجو .. رائحته الخاصة .. أدرك أنه موجود على وفى كل شىء هنا .. على مقبض الباب فوق الأريكة .. ونظر إلى (فابر) فوجد الرجل يكتم أنفاسه

كأنما يحاول ألا يلوث رئتيه برائحة (مونتاج) ، حتى لايتسرب هذا إلى داخله ..

- « (الهليكوبتر) تضع الكلب الآن فى مكان الحريق .. »

وعلى الشاشة ظهرت الهليكوبتر تهبط وقد تعلق منها شيء مغطى بالأغطية ، وقد ازدحم الناس حول بقايا الحريق .. ونظر (مونتاج) إلى هذا السيرك مبهوراً مفتوناً مع قدر من الاستمتاع .. رباه .. كل هذا من أجلى !

قال له (فابر) :

- « الآن يجب أن تفر .. سأحاول تعطيلهم بعض الوقت .. »

- « ولماذا ؟ يمكنك أن تحرق الملاءات والسجادة .. امسح المقابض بالكحول .. رش مبيد الذباب لبعض الوقت .. افتح أجهزة التكييف عن آخرها .. ربما ساعدك هذا على الخلاص من رائحتى .. »

- « سأفكر فى هذا .. »

- « املأ حقيبة بثيابك القديمة المتسخة .. كلما كانت قذرة كان هذا أفضل .. جوارب .. ثياب داخلية .. سآخذها معى على سبيل المزيد من التضليل .. والآن وداعًا .. »

وافترق الرجلان ، وراح (مونتاج) يجرى والحقيبة فى يده ، بينما بدأ المطر ينهمر من السماء غاسلاً الطريق .. ومن نوافذ البيوت كان يرى الناس جالسين أمام أجهزة التلفزيون الجدارية يراقبون الكلب .. الكلب العملاق على الجدار يزحف كأنه سحابة صامتة من النيون نحو بيت (فابر) ..

وتصلب (مونتاج) رعبًا ..

وقف الكلب على الباب يتشممه .. إبرة البروكايين تخرج من أنفه وتدخل .. تخرج وتدخل .. ثم دون مزيد من الحركة ابتعد ركضًا .. بصعوبة أقنع (مونتاج) أن هذا ليس مسلسلاً مثيرًا لكنها حياته نفسها .. صرخ ليرغم نفسه على الجرى ..

وألصق السماعة التى أعطاه (فابر) إياها على أذنه ليسمع ما يقال :

ـ « الشرطة تطلب من الساكنين فى منطقة (إلم) أن يفتح كل منهم نافذته .. لن يتمكن الهارب من الفرار لو نظر كل واحد من نافذته الدقيقة التالية ! استعدوا !! »

بالطبع ! لماذا لم يفكروا فى هذا من قبل ؟ كيف لم تجرب هذه اللعبة طيلة هذه الأعوام ؟ إنه الرجل الوحيد الذى يركض فى الشوارع ..

ـ « عند العدد عشرة .. واحد .. اثنان ! »

شعر بالمدينة تصحو .. تضع أيديها على مقابض الأبواب .. حلقه يحترق والدموع تحرق عينيه .. لابد من أن يصل لنهاية الطريق حالاً ..

أخيرًا عبر آخر صف من المنازل ، وانحدر عبر مدرج يقود إلى الظلمة ..

ـ « عشرة ! »

وانفتحت الأبواب كلها .. يمكنه أن يتخيل آلاف الوجوه الشاحبة بعيون مذعورة ، تختلس النظرات من وراء الستائر كأنها حيوانات تنظر من أقفاصها الكهربية ..

لكنه كان عند النهر الآن ..

مشى فى الماء وابتل حتى الجلد فقط كى يتأكد من أن هذا حقيقى .. شرب الكثير وتمخط بعضه من أنفه .. وحين وصل للضفة الأخرى ارتدى ثياب (فاير) القذرة ، وألقى بثيابه القديمة فى النهر ..

الآن ينزلق أكثر فأكثر إلى داخل النهر .. سمع صوت المروحيات والتمعت الأضواء ، لكنه غاص تحت الماء وسرعان ما عبر النهر .. وشعر كأنه ممثل يغادر مسرحًا مليئًا بالممثلين .. إنه يغادر عالمًا من الحقيقة المخيفة إلى عالم من الحقيقة التى لا يمكن أن تكون حقيقة لأنها جديدة عليه ..

كان النهر هادئًا يتلوى مبتعدًا عن الناس الذين يلتهمون الظلال فى الإفطار ، والدخان فى الغداء ،

والأبخرة فى العشاء .. للمرة الأولى يرى النجوم فى السماء منذ اثنى عشر عامًا ..

رأى القمر فى السماء .. لكن ما مصدر ضوء القمر؟ الشمس طبعًا .. الشمس تدوم وتحرق .. الشمس والزمن والحريق .. الشمس تحرق كل يوم .. والزمن منهمك فى حرق الأعوام والناس بدون عون منه .. لو أنه أحرق الأشياء مع رجال الإطفاء ، لكان كل شىء يحترق ..

الآن تصطدم قدماه بالحصى والحجارة .. إن النهر قد حمله إلى الشاطئ ..

توقع أن تتفتح الأشجار ويبرز الكلب الإلكترونى أو تحلق طائرات الهليكوبتر ، لكن لم يحدث شىء لدهشته .. ومشى وسط خضرة الريف مندهشًا .. يذكر مرة رأى فيها هذه المشاهد فى صباه ، حين عرف أن الريف صامت والماشية ترعى تحت الأشجار ، والكلاب تنبح خلف قطعان الخراف البيضاء ..

نام وسط الأعشاب ينظر للسماء والنجوم .. توقع فى

كل لحظة أن يسمع خطوات أو يرى الكلب الإلكترونى، لكن هذا لم يحدث .. نام لكنــه لم ينم فعــلاً لأن كل روائح الريف جعلته ينام دون أن يغلق عينيه ..

كان بحاجة إلى راحـة .. إلى أن يعطيه الكون فسـحة من الوقت ليفكر فى كل الأفكـار التـى يجب أن يفكـر فيها .. كوب من اللبن .. أجاصة .. تفاحة ..

الكثير جدًا من الأرض ! لابد أن هناك مليون ورقة شجر على الأرض .. والروائح .. كانت هناك رائحـة كالبطاطس المقطعة .. نيئة بيضاء من فرط ما ارتشفت شعاع القمر طيلة الليل .. رائحة كـالمخللات ورائحة كالبقدونس على مـائدة الإفطـار فـى البيت .. رائحـة صفراء كالخردل فى مرطبان .. حتى أنامله صارت لها رائحة الريبسوس ..

كلما تنفس أكثر دخل المزيد من الأرض إلى أحشائه .. إنه ليس خاويًا .. هناك دومًا الكثير من الأرض كى تملأ صدره ..

مشى على الطريق القديم الوحيد الذى غطته الأتربة، وأثار دهشته أنه واثق من حقيقة لا يمكن إثباتها ..

(كلاريس) مشت هنا حيث يمشى الآن .. وفى نهاية الطريق رأى النار ..

لم تكن نارًا كأية نار .. كانت تمنح الدفء لا الاحتراق، وأثار دهشته أن النار قد تعطى كما تأخذ أحيانًا .. دنا منها متلذذًا بشعور غمره بأنه مجرد حيوان خرج من الغابة وقد جذبته النار .. حيوان يغطيه الفراء والبلل يدنو من النار .. النار التى تمنح الدفء، والتى التفت حولها أيد بلا أذرع تصطلى .. هنا لايوجد للوقت أهمية .. هنا يمكنك أن تجلس كما تشاء وتقلب الكون كله كأنك تقلب عصا فى هذه النار ..

وكانت الأصوات تتكلم .. لم يفهم عم تتكلم لكنها كانت تتكلم عن كل شىء .. لم يكن فى الكون شىء لاتقدر هذه الأصوات على الكلام عنه .. وأخيرًا قال له أحدهم :

- « حسن .. يمكنك الدنو .. مرحبًا بك معنا .. »

مشى (مونتاج) نحو النار ، وكان الرجال الخمسة المسنون جالسين هناك يلبسون سراويل قطنية زرقاء وسترات زرقاء قاتمة .. لم يدر ما يقول لهم .. كانوا ملتحين لكنها لحى مشذبة أنيقة وأيديهم نظيفة ..

ـ « هل لك فى قهوة يا (مونتاج) ؟ »

وناولوه كوبًا من القصدير فشرب منه بعض السائل الأسود .. احترقت شفتاه لكن لا بأس ..

مد له أحد الرجال يده بزجاجة وقال :

ـ « اسمى (جرانجر) .. اشرب هذا أيضًا .. بعد دقائق سيغير التركيب الكيميائى لعرقك .. ولسوف تكون لك رائحة رجل آخر .. فلن يجدك الكلب »

شرب (مونتاج) السائل المر ..

ـ «ستكون رائحتك كريهة كالوشق .. لكن لابأس .. »

ـ « أنتم تعرفون اسمى ؟ »

أشار الرجل إلى جهاز تلفزيون صغير وقال :

- « إن المطاردة اتخذت شكلاً آخر تمامًا .. لقد انتهت آثارك عند النهر ، ومعنى هذا أن المشاهدين سيفقدون حماستهم لأن تفتيش النهر يستغرق الليل كله .. لهذا اتجهوا إلى مكان آخر ليبحثوا للمشاهدين عن كبش فداء .. (مونتاج) آخر ! هل ترى ؟ الهليكوبتر تهبط .. هناك رجل بائس يمشى وحده فى الشارع .. هذا غريب .. غير معتاد .. ربما هو الأرق أو أنه مخلوق شاذ .. بالطبع تعرف الشرطة عادات البط الشاذ من هذا النوع ، وهم يسجلون ذلك .. الآن يتضح أن هذه المعلومة بالغة الأهمية .. كانوا بحاجة إلى أحمق يمشى فى الشارع ليحفظوا ماء وجوههم وهاهو ذا .. »

وعلى الشاشة جرى الرجل وقد رأى الكلب الإلكترونى يجرى وراءه .. هنا أطلقت الطائرة دستة من الطلقات حول الرجل لتنغرس فى الأرض صانعة قفصًا معدنيًا من حوله .. نظر الرجل إلى أعلى فى ذعر غير فاهم مايحدث ، ولفافة تبغ مازالت مشتعلة فى يده .. فى اللحظة التالية انقضت عليه الكاميرا والكلب فى آن واحد .. وبرز المحقن وانغرس فى عنقه فلم يجد وقتًا للاستغاثة .. إخراج بارع حقًا ..



وعلى الشاشة جرى الرجل وقد رأى الكلب الإلكترونى يجرى وراءه ..

إظلام تدريجى .. ظلام ..

ثم ظهر معلق على الشاشة وقال :

- « انتهى البحث .. مات (مونتاج) وانتقم المجتمع من جريمة ارتكبت فى حقه .. »

قال (جرانجر) :

- « هل لاحظت أن وجه الرجل لم يظهر فى أية لقطة ؟ »

ثم مد يده يصافح (مونتاج) المذهول :

- « مرحبًا بعودتك من الموت ! أقدم لك المجموعة .. هذا (فريد كليمنت) .. كان أستاذًا فى (كمبريدج) قبل أن تتحول إلى (معهد الهندسة النووية) .. د.. (ويست) من جامعة (لوس أنجيليس) .. قدم دراسة قيمة عن الأخلاق لكنها منسية الآن .. المحترم (بادوفر) كان يحاضر فى مدارس الأحد قبل أن يطرد بسبب آرائه .. أما محسوبك فكتب دراسة عن العلاقة بين المجتمع والفرد .. وهأنذا هنا الآن .. »

ـ « أنا لست مثلكم .. كنت أحمق طيلة حياتى .. »

ـ « ليس منا إلا من كان أحمـق بشكل مـا .. هل لديك ما تقدمه لنا ؟ »

ـ « لدى جزء من التوراة لكنى أضعتـه .. إلا أنـه ما زال هنا ! »

وأشار إلى رأسه ..

ـ « لا بأس .. »

ونظر الرجل إلى الآخرين متسائلاً :

ـ « هل لدينا جزء من التوراة ؟ »

قال آخر :

ـ « رجل يدعى (هاريس) من (يانجزتاون) .. »

أمسك (جرانجر) بكتفى (مونتاج) فى صرامة وقال :

ـ « (مونتاج) .. خذ الحذر وحافظ على صحتك .. لو مات (هاريس) ستكون أنت نسختنا الوحيدة من التوراة .. »

- « لكنى نسيت الكثير .. »

- « ستتذكر .. ستتذكر حين يتطلب الأمر .. إن كلاً منا لديه ذاكرة فوتوغرافية ، لكننا ككل البشر نكافح حياتنا كلها كى نحجب ما هو هنالك فعلاً .. هل تتمنى أن تقرأ (جمهورية أفلاطون) يومًا ما ؟ »

- « نعم .. »

- « أنا (جمهورية أفلاطون) ! هل تريد قراءة (ماركوس أوريليوس) ؟ مستر (سيمون) هو (ماركوس أوريليوس) .. »

- « كيف حالك ؟ »

- « أتمنى أن تقابل (سويفت) مؤلف (رحلات جليفر) .. الكتاب السياسى الشرير .. أما هذا فـ (تشارلز داروين) وهذا (شوبنهاور) وهذا (آينشتاين) .. نحن هنا يا (مونتاج) .. (أريستوفان) والمهاتما غاندى و(بوذا) و(كونفوشيوس) و(توماس بيكوك) .. كذلك نحن نحرق الكتب .. نحفظ

ما بها ثم نحرقها حتى لا يجدها أحد .. أكثر الطرق أمنًا أن تبقى الكتب فى العقول حيث لا يشك أحد فى وجودها .. كل ما نقوم به هو إبقاء المعلومات التى نعتقد أن البشرية تحتاج إليها .. ولا ننوى أن نحارب أحدًا لأنه لو تم تدميرنا لانتهت المعلومات للأبد .. لكن لو انتهت الحرب التى يخوضها هذا البلد فلربما نتولى نحن الأمر .. »

ـ « كم منكم هنا ؟ »

ـ « آلاف على الطرق وسكك الحديد المهجورة .. متشردون من الخارج .. ومكتبات من الداخل .. لم تخطط للأمر فى البداية .. كل واحد كان عنده كتاب يريد أن يتذكره وقد فعل .. ثم خلال عشرين عامًا قابل بعضنا البعض ، وتعلمنا أنه لا أهمية لنا .. نحن مجرد مغلفات للكتب .. سنحاول أن نظل أحياء حتى تنتهى الحرب ، عندها قد نجلس ليسمع كل منا ما يحفظه وتعود الكتب إلى العالم ثانية .. ربما نكرر الأمر ثانية لو تكرر الكابوس من جديد .. »

ـ « ولماذا تثقون بى ؟ »

ـ « لأن وجهك يكفى .. أنت لم تر وجهك فى المرآة من فترة .. أنت تبدو شنيعًا والمدن لا تعبأ بالمخابيل من أمثالنا .. لا يهم إن كنا نحفظ (الماجنا كارتا) أو الدستور .. نحن لا أهمية لنا .. »

وانطفأت النار ، فحاول (مونتاج) أن يرى فى عيون هؤلاء الرجال بريق العلم الذى يحملونه ، لكنه لم ير شيئًا خاصًا .. مجرد رجال لا يميزهم شىء .. هم مجرد كتب تمشى على قدمين بانتظار عميل يأتى يومًا ما .. عميل قد يقلب صفحاتهم بيد متسخة أو نظيفة لكنه آت لا محالة ..

قال أحدهم :

ـ « لا تحكم على الكتاب من غلافه ! »

وضحك الجميع فى صوت خفيض وهم يمشون مع النهر ..

انطلقت النفاثات تزأر فى السماء ، وقال (مونتاج) :

ـ « زوجتى فى المدينة هناك .. »

ـ « هذا مؤسف .. إن المدن لن تكون مكانًا فى الأيام القادمة .. »

ـ « من الغريب أننى لا أفتقدها .. لن أشعر بشىء لو أنها ماتت .. »

قال (جرانجر) :

ـ « اسمع يا (مونتاج) .. كان لى جد بارع .. رجل يجيد استعمال يديه .. ويربى الحمام ويعزف الكمان .. حين مات حزنت لأننى لم أبك عليه ، ولكن على كل الأشياء الجميلة التى لن يصنعها ثانية .. كم من تماثيل لن تخرج للعالم ، وكم من سلالات حمام لن تفرخ ، وكم من نكات لن تقال ، وكم من ألحان لن تعزف على الكمان .. »

وأنت يا (مونتاج) .. ماذا قدمت للعالم ؟

رماد ..

قال (جرانجر) مواصلاً كلامه :

ـ « كان جدى يقول إن كل إنسان لابد أن يترك شيئًا من بعده وإلا لن يذهب للجنة .. يترك طفلاً .. جدارًا .. نبتة .. قصيدة .. كتابًا .. شيئًا لمسته يداك .. وكلما نظر الناس للجدار أو النبتة وجدوك فيها .. لا يهم أن تكون بارعًا .. المهم أن تغير شيئًا عما كان عليه قبل أن تمسه ..

« هل ترى ؟ جدى مات من زمن بعيد ، لكن لو فتحت جمجمتى لوجدت بصمات أصابعه على كل تعريجة من مخى .. لقد لمسنى .. »

هنا صاح (مونتاج) :

ـ « انظر هناك ! »

وفى هذه اللحظة بدأت الحرب وانتهت ..

★ ★ ★

فيما بعد لم يستطع الرجال حول (مونتاج) تذكر هل رأوا بالفعل شيئًا .. ربما أقل ضوء وحركة فى السماء . لكن القنابل كانت هناك ، وقد هبطت بسرعة

مفزعة . فوق مدينة الصباح . لقد انتهى القصف .. بمجرد أن تحركت أجهزة القذف انتهت الحرب .. الآن مرت ثلاث ثوان وقد عبرت طائرات العدو نصف العالم مبتعدة ، كأنها رصاصات لايؤمن الرجل البدائى بوجودها لأنها غير مرئية .. لكن القلب يتمزق فجأة ، والجسم يتهاوى ، والدم يتناثر فى الهواء .. العقل يسمح لنفسه ببضع ذكريات ثمينة ، ثم - ولدهشته - يموت ..

أبقى (مونتاج) القنابل فى الهواء للحظة بعقله ومد يدًا معدومة الحيلة إليها :

- « اجروا !! »

قالها لـ (مليدريد) .. لـ (فابر) .. لـ (كلاريس) .. لكن (كلاريس) ماتت ، و(فابر) فى الحافلة الآن .. الحافلة المتجهة إلى أفق مجهول ، حيث لم تعد لوجهتها قيمة ما ..

- « ابتعدوا !! »

لابد أن (مليدريد) كانت غائبة فى دوامة الأصوات والألوان فى غرفة الفندق حين رأت وجهها .. وجهها الحقيقى فى الثوانى التى سبقت سقوط القنبلة، ثم حملها الانفجار مع آلاف غيرها إلى القبو حيث الدوامة الكبرى ..

ودفعتهم موجة الانفجار فتساقطوا كقطع الدومينو، وامتلأت عيناه بالغبار وذرات الأسمنت ..

كانوا الآن على الأرض يتشبثون بالعشب .. أصابعهم مخالب مغروسة فى الطين ، وهم يصرخون كى لاتنفجر آذانهم .. كى لا ينفجر تعقلهم .. كأنهم يحتجون على الريح التى أدمت وجوههم وجعلت أنوفهم تنزف ..

ومن جديد ساد الصمت .. هوى على العشب ليمنحهم القدرة على أن ينظروا حولهم ، ويحفروا هذا اليوم فى حواسهم للأبد .. وماتت الريح .. كان الهواء باردًا ينذر بمطر قادم ..

ونهض (جرانجر) وتحسس ذراعيه .. وهو يسب .. يسب .. الدموع تنحدر على وجهه .. نهض إلى النهر ينظر إلى المدينة :

- « إنها مسطحة .. المدينة تبدو ككومة من مسحوق الخبيز .. لقد ولت .. »

ثم بعد فترة طويلة قال :

- « أتساءل كم واحدًا عرف بالنهاية .. كم واحدًا شعر بالدهشة ؟ »

أشعل أحدهم النار فراحت تتوهج .. وكف الرجال عن النظر وشرعوا ينظرون إلى النار ..

تناول (جرانجر) لفافة من المشمع وأخرج منها قطعة من اللحم وقال :

- « سنأكل لقمة ثم نتجه نحو أعلى النهر .. لابد أنهم سيريدوننا هناك .. »

أخرج أحدهم مقلاة .. وبدأ الطهى .. تصاعدت رائحة طيبة ورلحت قطعة اللحم تتراقص فى المقلاة ، أمام عيون الرجال الصامتة . ونظر (جرانجر) إلى النار وقال :

- « العنقاء .. »

- « ماذا ؟ »

- « كان هناك طائر سخيف يدعى (العنقاء) فى الماضى .. فى كل مائة عام كان يبنى لنفسه محرقة ويحرق نفسه .. لكنه كان يولد ثانية من الرماد فى كل مرة .. يبدو أننا نفعل الشىء نفسه لكننا نملك شيئاً لايعرفه الطائر اللعين .. نحن ما اقترفناه .. وطالما لن ننسى هذا سيأتى اليوم الذى نكف فيه عن إشعال المحرقة والوثب فيها .. »

وأبعد المقلاة عن النار وجلسوا يأكلون فى صمت وشرود .. من جديد قال (جرانجر) :

ـ « سنقابل أناسًا يسألوننا : من نحن .. سنقول لهم إننا بلا أهمية .. لا عمل لنا إلا التذكر .. سنصنع أكبر رفش فى الكون نحفر به أكبر قبر فى الكون ، وندفن فيه هذه الحرب .. »

كان النهار يتألق باستمرار ، وعادت الطيور التى فرت إلى غصون الأشجار .. ومشى الرجال أعلى النهر .. نظر (مونتاج) إلى الرجال لكن (جرانجر) أشار له كى يتقدمهم .. كانوا صامتين .. فقد كانت هناك الكثير من الأفكار والكثير مما يجب تذكره .. ربما فيما بعد يمكنهم أن يتبادلوا الكلمات ..

حين يأتى دوره فماذا عساه يقول ؟ ماذا عساه يقدمه فى يوم كهذا كى يجعل الرحلة أسهل ؟ هناك موسم لكل شىء . هناك وقت للانهيار ووقت للتماسك .. وقت للصمت ووقت للكلام .. وماذا بعد هذا ؟

على جانبى النهر كانت هناك شجرة للحياة ، تحمل اثنى عشر نوعًا من الثمار تمنحها كل شهر .. وكانت أوراق الشجرة مخصصة لعلاج جروح البلاد .. وفكر (مونتاج) قائلاً : نعم .. هذه هى القصة التى سأدخرها إلى الظهيرة .. الظهيرة عندما نبلغ المدينة .

راى برادبورى

1953

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب

451 فهرنهايت

أربعمائة وواحد وخمسون فهرنهايت .. هذه هى الحرارة المثلى لتدمير الكتب وتحويلها إلى رماد .. للقضاء على ذاكرة البشر وعلى كل ما كافح المفكرون والعلماء والأدباء كى يتركوه لنا ..

451 فهرنهايت .. هذا عصر كئيب يحرق الكتب ، ويعتبر حيازتها جريمة ، كما نعامل نحن اليوم من يملك المخدرات . عصر يصير فيه لكلمة (الإطفاء) مدلول مختلف .. وبطل قصتنا (مونتاج) كان رجل إطفاء من الذين يحرقون الكتب بحماس شديد ، حتى بدأ يعرف أشياء ، ويكشف الغطاء عن حقائق ..

42

الثمن فى مصر ٢٠٠ مـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم
دائرة المذءوب

